بقلمي

الطبعة الثالثة

١٤٤٢هـ - ٢٠٢٠م

دار الخزانة

الكويت:

٠٠٩٦٥ ٦٧٦٠٦٠٣٣ - ٠٠٩٦٥ ٥٥٣٨٦٠٦٢

المملكة العربية السعودية:

٠٠٩٦٦ ٥٥٧٧٦٥١٣٨ - ٠٠٩٦٦ ٥٦٢٠٠٠٧٣٣

dar.alkhezanah@gmail.com

بقلمي

الدكتور سالم العجمي

بسم الله الرحمن الرحيم

بقلمي

هذه مجموعة من المقالات، وإن شئت قُل: مجموعة من المشاعر؛ بدأَت بين كثبان الرمل، وانتهت بأحاسيس الفقد، وآلام الرحيل، وبين هاتين المرحلتين توقَّفَت في محطاتِ عبور، فلاحَ للناظر من خلالها جبلٌ لا يهتز حتى لا يُرى انكساره، وأعينٌ تبحث عن دموع لتُشترى، وفي زاوية بعيدة وقف شخصٌ لا يستطيع أن يعبِّر عما في نفسه، وآخر يملك التعبير ولكن لم يجد من يفهمه، فصبَرَ على أعاصير الحزن طمعًا في أن يرى غدًا أفضل.

كم نحتاج إلى أن نكتب أنفسنا حتى نعبِّر عنها، وكم نحتاج إلى أن نفهم الآخرين لنستطيع أن نبوح نيابةً عنهم فيما عجزوا عن إظهاره، ليذوقوا طعم السعادة حين يجدون من يفهمهم ويشعر بهم.

فهذه المقالات لا تمثل حياةَ شخص، وإنما تحكي مشاعر أشخاصٍ متفرقين، جمعهم قلمٌ واحد، فما نكتبه ليس بالضرورة أن يكون جزءًا من حياتنا، ولكنه بلا شك جزءٌ منا وقطعةٌ من قلوبنا.

الدكتور سالم العجمي

الكويت

١٢شعبان ١٤٣٨هـ، الموافق ٢٠١٧/٥/٨م

المشاعـــر

مشـاعر الإنسان تمثِّل جزءًا كبيرًا مهمًّا من حياته، ولها تأثير قويٌّ في طريقة تعامله مع الحوادث والأشخاص، سواء كانت هذه المشاعر جِبِلِّيـةً فطريةً تتمثل في العواطـف، أو كانت حادثة طارئة تُترجَم إلى أحاسيس.

وعلى كل حال، فإن هذه المشاعر ركن عظيم تقوم عليه شخصية الإنسـان، ولذلـك تجـد أكثر ما يشـوِّش على المرء ويجعلـه يخرج عن اتزانه حين يكتشـف شـخصًا يحاول أن يتلاعب في مشـاعره، أو أن يتجاهلها فيعامله وكأنه جدار، أو أن يمنعه من التعبير عن مشـاعره وكأنه يريد أن يكتم أنفاسه.

ولا يقتصر الفهم حين نتحدث عن المشـاعر على علاقات الغرام ومشـاعر الهيـام، بل الأمـر أكبر من ذلـك، فهو يخـص كلَّ ما يمس مشاعر الإنسان من أيِّ نوعٍ كانت، وبأي شيءٍ تعلقت.

ذُكر عن أحد الشعراء أنه طارت منه ورقةٌ قد دوَّن عليها قصيدة في يومٍ شديد الريح، فلحقها طويلًا حتى أعيته، وبعد عناءٍ أمسك بها

فسُرَّ لذلك وابتهج، والناس مستغربون مما يرون، فلما أقبل عليهم، قالوا له : كل هذا الركض وراء قصيدة؟!

قال: أنتم لا تعلمون، لقد حبَّرْتُها من دمِ قلبي.

ولذلك من الخطأ أن تزدريَ مشاعر الناس مهما كنت تراها صغيرة، فإنّ صاحبها ينظر من منظار آخر لا يتبيّن لك، وقد لا يهمه أن تصل إلى حقيقة مشاعره، بقدر ما يضيق ذرعًا إن حاولت أن تزدري هذا الشيء الذي يراه جزءًا من حياته.

الأسماء، الأشخاص، الأماكن، الذكريات، تمثِّل أمرًا بالغ الأهمية في حياة صاحبها، فتعامَل معه بحذر حتى لا تحزنه في وقتٍ يحتاج منك إلى كلمة تشجيع أو مواساة، أو على الأقل تشعره بأنه ثمةَ شخص عرف كيف يفكِّرُ، وبماذا يشعر.

ربما لا نستطيع في أحوال كثيرة أن نقدِّم لأصحابنا خدمة حسية، بل وهم لا يريدون ذلك أصلًا، لكن جميلٌ أن يستشعروا أنه ثمة أناسٌ قريبون منهم.

أتعرف كيف يكون استشعار مشاعر الآخرين؟

هو باختصار أن ترى ما يفكرون فيه ويشعرون به كبيرًا، في الوقت الذي يراه الآخرون شيئًا عاديًّا، هذا إن لم يروه شيئًا تافهًا وتفكيرًا قاصرًا أصلًا.

المشاعر التي يبثّها الناس نحو ما يحبون أو يميلون إليه لا يعني أنه شيءٌ كبير بالفعل، فقد يكون شيئًا صغيرًا على أرض الواقع، ولكن تعلُّق القلبِ به جعله كالجبل، وبخسارته يخلفه جرحٌ عميق وحزن لا ينضب.

لا تخجل أن تبثَّ مشاعرك، ولا يلزم أن تحدِّث بها شخصًا ما، ولكن تعامل بها على أرض الواقع، فإذا مرّ بك ما يهيِّجُها، فلا تمتنع من إطلاقِ زمامها، وفكِّ قيودها، فإنك إن فعلتَ، دلّ ذلك على أنك لا زلت تملك قلبًا نابضًا مفعمًا بالحياة.

ولذلك كان من علامات سعادة المرء إذا كبر سنه أن يرق قلبُه وتلينَ مشاعرُه، وتذهب عنه القسوة -إن كان قد اتصف بها في سالف أيامه- فتجده في آخر عمره قادرًا على التعبير عما يحتويه قلبه من المشاعر، تارةً بالكلام وتارة بإفاضة الدموع حتى تبل فؤاده فيعود رقيقًا لينًا.

ومن أكبر علامات الشقاء أن يتصف قلبه –وقد تقدم سنه– بالقسوة والغلظة حتى ينكره ويجد بينه وبينه الوحشة وهو بين جنبيه.

ما أجمل أن يتمتع المرء بالمشاعر المتدفقة الجياشة، والأجمل أن يتعامل معها كجزءٍ من حياته، ودافعٍ لتقويم شخصه، ولا يرى أن التعبير عنها نوعٌ من الضعف، فإنه لما عجز البعض أن يحوز هذا الكنز، جعل الاتصاف به نوعًا من العجز، ولكن الحقيقة أن القوي هو الذي يستطيع أن يسخِّر إمكانياته لخدمة نفسه حتى يكون شخصًا طبيعيًّا، فكيف إذا كانت هذه الإمكانيات تتمثل في المشاعر التي تبعث الطمأنينة في النفوس، وبابًا إلى قلوب الآخرين، فتجدهم يسارعون من خلاله إليك، فيجدون عندك القلب الحاني الذي يستشعر آلامهم ويشجع آمالهم، وتجد لديهم بغيتك في تليين قلبك، ونزع رداء الجفاف الذي يحاول أن يلتف حولك.

فإذا أردت أن تبلغ الغاية في فَهْم مشاعر الآخرين، فانظر إلى مشاعرهم بعيونهم لا بعينك، واستشعرها بأحاسيسهم لا بإحساسك، فهنالك ستعلم كيف يفكِّرون، وترى ما كنت

تستصغره كبيرًا، فيسـهل عليك أن تجمع لهم ما تشتت من أفكارهم فتدلهم على الأمان.

وترسـل رسـالة إلى غـيرك قائـلًا: إذا أردت أن تفهم مشـاعري فانظر إليها بعيني لا بعينك، فهنالك ستعلم من أنا.

كُثبان الرمــل!!

بـين الفينة والأخـرى يأخذني الطريق؛ أو أنا أسـلكه نحو مكانٍ لم يـزل مقيمًا في ذاكـرتي، قائمًا في مخيلتي، فأمرُّ بـه وقد تغيَّرت معالمه، لكننـي أرى فيـه الطفل الذي كان يظن أن عجلة الأيام سـتقف عند ذلـك الحـد، ولن يكـون ذلك الشـخص الـذي تغـيَّرت ملامحه كما تغيَّرت رسوم ذلك المكان.

يحملنـي الحنـين دائمًا إلى كثبـان الرمل التي اجتمعـت؛ ثم علت وارتفعت حتى صارت جبالًا -هكذا كنا نسميها ببراءة الطفولة-.

ولم أزل أتذكر تلك الضحكات الشـاهقة، وضجيجنا الذي ملأ الآفـاق، ولَعِبَنـا على تلـك الكثبان حين موعد فسـحتنا وتنزهنا على ظهرها، في وقتٍ كنا نظن أنه لا يوجد أحدٌ على وجه البسيطة يعيش مثل سعادتنا.

كانت الرحلات غالبًا ما تكون مع أبناء الجيران، في الوقت الذي لا يميـز الداخـل إلى البيـت لأول مـرة أبناء صاحب الـدار من أبناء جيرانه.

أسرةٌ واحـدةٌ بما يحملـه معنى الأسرة، وكبارٌ عقـلاءُ يتجاوزون توافه الأمور لتبقى علاقات الصغار متينة، ويزرعون الوفاء ولو كان المقابل لا يسقيه.

كنـا نلعب ذكورًا وإناثًا لأننا حينئذٍ لم نكن نحمل نفوسًـا تعرف الطمع، بل نتعامل وكأننا إخوة ومحارم.

ولمـا كبرنـا علمنا أن السـعادة التي كنا نعيشـها في سـالف أيامنا ليـس سـببها فقط أننا كنا أطفـالًا أبرياء، بل السـبب الرئيس هو أننا لم نكن نحمل مسـؤولياتٍ تنسيك نفسـك، وتلهيك عن مصالحك، وتقتل مشاعرك في الوقت الذي تكون أحوج ما تكون فيه إلى تلمُّس قلبك، فإذا به وقد أتاك من أخرجك إلى عالم بعيد يقتلك همًّا ويزيدك أسى.

قلت ذات مرة لصاحب لي –وقد غبنا عن بعضنا طويلًا بسـبب مشـاغل الدنيـا– : أتـدري، أصبح يـراودني هذه الأيام شـعورٌ دائمٌ بالشوق إليك، فقال مازحًا: هذا من علامات تقدُّم العمر.

بالفعل، بدأت أشـتاق إلى معـارف الصغر، والعلاقات الصادقة التـي تحبك لذاتـك، وتقرِّبُك لأنها تأنس بـك، وإلى كلِّ مكان يحمل ذكرى قد مرَّت بي مهما كان نوعها.

وبـدأت أشـتاق إلى كُثبـان الرمل التي كنـت أظنها جبـالًا، فلما قادتنـي إليهـا قدماي بعد زمن، فإذ بالرياح قـد نحتتها، ولم يبق منها إلا مرتفعًـا صغـيرًا يكاد يعانق الأرض المنبسـطة، فقلـت في نفسي: حتى الرمال تأبى إلا أن تكون من عداد الذكريات.

كـم حملنـي الشـوق إلى أن أبحث عن ذكريات المـاضي، وأضيق ذرعًا بمن يدخل إلى عالمي هذا بموضوع يخرجني عن لذة الحنين إلى الذكريات.

كنت ذات مرة مع أحد كبار السـنّ ممن أحب مجالسـته، وقد كان رجلًا شـديدًا، وكان ذا معرفة بالقافة وتتبـع الأثر، فأخذني العَجَب حينـما حدثني بموقف مرَّ به، قال: أدركتنا الصلاة فوقفنا على جانب الطريـق لنصلي، وفي أثناء الصلاة، جاء رجلٌ ليصلي معنا، فلما وقف بجانبي، عرفت من قدميه أنه فلان، وقد كان عهدي به منذ أكثر من ثلاثـين عامًـا، فوالله لما عرفته لم أتمالك شـعوري حتـى كِدْتُ أنحني على قدميه لأقبلها!!

لما سـمعْتُ القصة وأنا في غاية العَجَب، لم أستغرب كيف عرف أقدامـه بعد هـذه المدة الكبيرة؛ لمعرفتي أنَّ هذا علمٌ معروف يُسـمَّى القافـة، ولكن تملَّكني العجب مـن أن الذي كان يتحدَّث بها هو من

أشدّ الناس شكيمة وأشجعهم قلبًا، فعلمت حينئذٍ أن العاطفة أقوى من الطباع والعادات.

وها نحن بين الحين والآخر نفتِّش في أنفسنا بقصدٍ أو بغير قصد، فنجد في زوايا قلوبنا، ما لم نكن نتخيل أن يكون له أثر في حياتنا، فإذا به يستمطر أدمعنا، وترتجف له قلوبنا، ونلتفت في وجوه المحيطين بنا، لعلنا نظفر بشخصٍ يفهم شعورنا، فنخبره بأحاسيسنا، ليس لكوننا نريد منه حاجة أو يحملنا الاضطرار إليه، ولكن ربما لكوننا نستشعر أننا بحاجة إلى التفكير بصوت مسموع.

ولأجل ذلك كان أقرب الناس إليك في هذه المواقف هو الشخص الذي تشعر أنه يحس فعليًّا بما تقول؛ والأجمل أن يقول لك: وأنا أجد مثل هذا الشعور الذي يمرّ بك، فتشعر أنَّ بينكما نقطةَ التقاءٍ وحبلَ تواصل، يجعله أقرب الناس إليك.

لا أنسى ما حدث معي ذات مرة، حيث كنت أكلم شخصًا في الهاتف حول موضوع يشكِّل بالنسبة لي أهميةً بالغة، وعندي رغبة فيه وتطلُّعٌ إليه، فلم يتيسَّر لي، وكان بجانبي أحد جلسائي، وتربطني به علاقة ودّ، فلما رأى تغيُّر ملامحي، فإذ بوجهه يتغيَّر، وتعلوه غيمةُ حزن، فقلت له: مالك؟ قال: أخذني الحزن لأنني استشعرت أنك تريد هذا الأمر، ولكنه فاتك ولم يتحقق لك.

فأيـن تجـد مثـل هـذا النَّفَـس الجميـل، وهـذه النفْـس الرائعة، والإحساس الرقيق الذي لن يغيِّر واقعك، ولكن على الأقل يشعرك أن ثمة شـخصًا يهتم بك، أو تعني له شـيئًا، فيستشـعر حرمانَك من أمرٍ تحبه، أو فقدانَك لشيءٍ تتعلق به.

ولذلك، يجـب أنْ لا ننظر إلى الذكريات من باب الحنين المجرد، والحـزنِ على ماضٍ قد أفَلَت شمسُـه ولن يعود، فهذا شـعور ناقص غير متكامـل، ولكن الأجمل والأنفع أن ننظر إلى هذه الذكريات من زاويـة أخـرى تقودنا إلى الوفاء لمن شـارَكَنا هذه المواقف، وقاسَـمَنا فرحة الأمس، حتى ولو كانت تتمثَّل في لَعِب طفلٍ بين كثبان رمل لم يبق منه إلا صورةٌ في الذهن، وعبرةٌ تتحرك كلما مررت به، فقادك إلى تذكُّر أشـخاص ربما في كثير من الأحيان لا تعلم في أيِّ مكان حَلُّوا، ولا إلى أيِّ جهة رحلوا، ولكنهم شاركوك بعض أيام حياتك، فكلما تصفَّحْـتَ أوراق تلـك الأيام ظهروا لك وكأنهـم يقولون: كن وفيًّا لأيامك، فتتحرك عبرةٌ في أحداقك وكأنها تناديك وتصرخ بك: «لا زلت طفلًا يلهو بين كثبان الرمل!!».

ستكبُر يا صغيري

ها قد مرت الأيام..

لم أتصور أنها ستمر بهذه السرعة، وأن كثيرًا من المواقف والأحداث ستصبح حديث الذكريات، وشيئًا من الماضي، أُحدّث نفسي أو غيري بها قائلًا: «أتذكُر ذلك الموقف؟ أتذكر ذلك الحدث الذي مرَّ بنا؟».

ذكرياتٌ مقرونةٌ بالضحكات، وأحيانًا ممزوجة بالدموع والآهات.

كنا نحلم بأن نكون، وربما كنا ما أردنا، وربما بقي الحلم مجرد أمنيات لم تزل باقية في المكان الذي حدثنا أنفسنا فيه بأننا سنكون وسنكون!!

كم أردنا أن نفعل ما نريد، ورغبنا أن نحصل على شيءٍ ما، فتأتي الأوامر الصارمة من الوالد بالمنع، فكنا نرى لصغر عقولنا أنه لا يريدُ إسعادنا، وننسى أنه كان يكدحُ ليل نهار، ومنع نفسه من كثير من الملذات، وحبَس نفْسه عن كثيرٍ من الأماكن والمجالس والعلاقات

ليبنيَ لنا مجدًا، ويخلّف لنا ذكرًا طيبًا، أو على الأقل عيشًا آمنًا وحياةً هادئة.

كم كنا نرى تسلّط الأخ الأكبر، ونفسّر فعله قسوةً وغلظة، وإذا جاء ليبيِّن لنا أن ما فعله إنما كان بدافع المحبة، نتوهم أنه كاذب، وأنه يبغضنا ولا يريد لنا الخير، بل يريد كسر شخصياتنا.

كم كانت تخرج منا العبارات الجارحة للوالد، للوالدة، للأخ الأكبر، للأخت الكبرى، تحت شعار: «أنت لا تحبني»، ونجعلهم في صراع من أجلنا حتى في مشاعرهم، بين أن يستمروا على نهجهم في التربية وبين ما يعانونه من الحزن الشديد، حيث لم نمكنهم من تفهم مشاعرهم.

ثمَّ تمر الأيام تلو الأيام، وإذ بذلك الصغير يجني نجاحاته يومًا بعد يوم، ويعلم أنه لولا ذلك الوالد الذي كان يتصوره قاسيًا، والأخ الأكبر الذي كان يراه متسلطًا، لم يصل إلى هذه الحياة المستقرة إلى حدٍّ كبير.

والأعجب من ذلك، أن ذلك الصغير الذي صار كبيرًا، بدأ يربي أبناءه بنفس الطريقة التي كان يرفضها ويحاول التخلص من قيودها، ليجني أبناؤه نجاح حياتهم، متحملًا في سبيل ذلك العبارات

الجارحـة، والاتهامات اللاذعة، ومع ذلك يسـتمر في سـيره بغية أن يحقـق لأبنائه العيش الرغد، ويسـاعدهم في تكوين الشـخصية التي يستطيعون من خلالها أن يواجهوا صعوبة الحياة.

وأنـت يـا صغيري، لـن تسـتطيع أن تفهم شـعوري حتى تمضي بـك الأيام، وتمـر مسرعة بك كما مرت بأبيك، ثـم تكبر يا صغيري، وتكون أبًا، وتكونين أُمًّا، وحينها سـتعرف الشعور الذي كان يخالط أباك حينما كان يمنعك من كثيرٍ من الأمور التي ترى أنَّ منعها تعنُّت، فتكتشـف بعد مضي السـنين أن منعها كان من أجلك، وإذ بك تكرر مع أبنائك ذات الدور الذي كان يقوم به والدك.

سـتكبُر يا صغيري.. وتعرف أنك كنت بالنسـبة لوالدك شريان قلبـه، وبهجـة أيامه، وأنه كان يمنعك من أشـياء كثيرة خوفًا عليك، وأنت ترى أنه لا يتعلّق بها نفعٌ ولا ضرر.

فلـما أخـذتَ مكانـه، وكُلِّفْـتَ بمثل مهمتـه، إذ بـك تفعل مثل صنيعه، وأحسسـت بمقدار ما كان يعانيه من حزن المشـاعر ونيران العاطفة، حين كان يمنعك من أشـياء كان قادرًا على تحقيقها، ولكن منعه الخوف عليك أن يحضرها إليك أو يأذن لك بمقاربتها.

ستكبرُ يا صغيري.. وتكون أبًا، وتكونين أُمًّا، وتعرف أن ذلك الشخص الذي كنت تتوهمه قاسيًا، والآخر الذي تراه متسلِّطًا، لم يفعل ذلك ليجني منك ربحًا ماديًّا، أو حياةً فارهة، بل إنه قدّم لك جهده وسهره، وحرصه الذي أتعب قلبه، لتعيش هانئًا، ثمَّ ولّى عنك ليعيش حياته التي حمل معها بقايا من تعب، وركامًا من هموم، دون أن يكلفك شيئًا، وقد فعل ما فعل لتعيش سعيدًا.

ستكبرُ يا صغيري.. وتعلم أن ذلك الشخص الذي عاش من أجلك -رغم ما فيه من النقص- شخصيةٌ لن تتكرر، ليس لأنه قدّم لك ما لا يستطيع أحدٌ أن يقدّمه، ولكن لأنه كان يحمل قلبًا يخاف عليك، وأنك كنت نبضه.

كم عظيم أنت أيها الجبل

كلما نظرتَ إلى ذلك الجبل الشـاهق، علمتَ مقدار ما يتصف به مـن القوة والثبات، رغم ما يعتريه من العوامل والأحداث المتعاقبة، التي تحاول أن تنحته حتى لا يبقى منه أثر، وإنْ لم يتحقق لها ما أمَّلتْه؛ فلا تيأس من أنْ تفتِّتَ بعضه، فصخرة من هاهنا، وحصاة من هناك، حتى تقوم فَرِحَةً بأنها حققت شيئًا، ومع ذلك تجد ذلك الجبل لا يزال شاهقًا؛ وكلما كثرت عليه الأحداث؛ كلما ازداد قوةً وصلابة.

بـل والعجـب أن تراه يزداد بذلًا وعطاء، فـتراه وقد تدفقت منه العيون والشـلالات، يسـقي النـاس، وترتوي منه السـهول، فإذ بها واحات خضراء، ورياض غنّاء.

لم يفكـر أحدٌ أن يبذل لذلك الجبل شـيئًا، لأنهـم يظنون أن كونه جبـلًا قائـمًا، يعنـي أنـه ليـس بحاجـة إلى شيء، فتراهـم يسـارعون لاستبداد خيراته، وتراه ثابتًا شامخًا.

ورغم الألم بسبب فقده بعض أجزائه، وكثرة النحت في جسده، والطَّرْق على قلبه، ما أنَّ وما اشتكى، فكم هو عظيم ذلك الجبل.

وهكـذا المـرء المعطاء، هـو كالجبل في شـموخه وكبريائه، يعطي بـلا حدود، ويبذل بلا قياس، لا ينتظر جزاء من أحد، ولا كلمة ثناء من آخر.

وربما يتألم من الداخل، ولكن يمنعه من الأنين أنَّ ناسًـا ينظرون إليه، ويرونه قدوةً، فيبتلع ألمه، لعلمه أنه بانهياره ستنهار أمةٌ، وتهوي مبـادئ، أو لأنـه يخاف شـماتة شـامت يتحـين الفـرص ويتربص به الدوائر، ليفرح بسـقوطه، أو لأنه يعلم أن صرخته سـتذهب أدراج الرياح لعدم وجود من يفهمه.

ومع ذلك تجده يعطي، ويبذل، ويلجأ إليه الناس فيجدون عنده المرهم الشافي، والدواء الناجع.

وربـما يبيت على مدى الأيام يرقب أن يأتيه من يشـعره أنه يحس بلوعـات قلبه وتفتُّت فـؤاده، ويراوده الحلم بذلـك، لكن مَن يحس حقيقةً بالجبل؟

والعجب أنه مع شـموخه، تجد من يتسـلقه ليصل إلى قمة رأسـه فيطأها، وبالرغم من ذلك يبقى شـاهقًا رفيعًا لا ينحني، ولا يمنعه ما رأى من قسوة أولئك أن يمنع الآخرين، فكم عظيمٌ أنت أيها الجبل.

لا تُرهِم انكسارك

بينما كنت أقوم بإنجاز عملٍ يدوي في منزلي، وقَفَت طفلتي ذات العامين محلقةً ببصرها نحوي، ثم قالت بصوتها الطفولي متكسرِ الأحرف: «بابا لماذا تبكي؟».

حينها لم أكن أبكي، ولكني بالفعل كنت مهمومًا لأمرٍ ألمَّ بي، فلما قالت مقولتها تلك، لم أتمالك نفسي حتى هرولتُ نحوَها مسرعًا؛ فحملتها وضممتها إلى صدري، والعجيب أنها حين احتضنْتُها، لم تصنع ما يصنعه الأطفال في العادة؛ من محاولتهم التخلص من القيود؛ وإن كانت يدَ الأب الحانية، بل إنها بادلتني الشعور؛ واحتضنتني طويلًا، وكأنها تقول: أشعرُ بما تشعر به.

مرت ليلةٌ كاملة، وأنا أتفكر في ذلك الموقف متعجبًا، بل ولم تزل حلاوته تلامس قلبي إلى وقت لاحق، وقد وقفت متسائلًا بعَجب: هل يشعر الطفل الصغير بما لا يدركه الكبار؟!

ربَّما جمال الموقف كان لإحساسي بأنَّ الطفل الصغير لا يختلق المشاعر، ولذلك كان شعورُه أجمل؛ وموقفه أعذب.

ولا أخفـي أنَّ هـذا الموقـف جعلنـي أؤمن بـما كنتُ ألقيـه دائمًا في دروسي وكلـماتي، وهـو أنَّ الواجـب على الوالـد أنْ لا يُري أبناءه الصغار -لا سيما البنات- انكسارَه، سواء كان بسب مشكلةٍ كبرى أو همٍّ عـارض، لأنهم إنما يرونه كالبناء المتماسـك الذي لا يتهاوى، والملجـأ الذي يلجأون إليه من حرِّ الصيف وبرد الشـتاء، فكيف إذا تزعزع البناء وانهارت جدرانه؟

أعترفُ أنَّ دموع بعض الأطفال تشـعرك بالحزن حتى لو لم يكن لذلك البكاء سـبب، فكيف إذا كنت تشـعر بحـرارةِ دموعهم وهي على خدودهم؟

وأقر بأنَّ لمعانَ بعض العيون ينبئك بما يسكن فيها من الألم، حتى يسـتدعي ذلك خوفك عليهم؛ لولا يقينُك بأنَّ الأمور كلَّها بيدِ الله؛ وأنك لا تملك لهم ولا لنفسـك ضرًّا ولا نفعًا، لكن في نهاية المطاف؛ ورغـمًا عنك؛ تغشـاك موجة من الهمِّ؛ ترجو أن تزول سريعًا بسـبب توكّلك على خالقك.

مواقـفُ تمرُّ، وتجارب تتكرر، ربما كنتَ يومًا ما قدَّ تكلمتَ عنها نظريًّـا، فـإذا مرّت بـك فانقلهـا إلى حيِّـز التطبيق، واسـتفد منها في مسـتقبل أيامك وحاضرها، وإذا لمسـتَ ذلك وتحسستَه؛ فانتبه حين

يمــرُّ بــك شيءٌ من حوادث الحيــاة أن تتهاوى أمــام أبنائك الصغار، لأنه مهما يمرُّ بهم من الشخصيات؛ تبقى أنت في نظرهم أفضلَ رجلٍ في العالم، فلا تُرِهم انكسارك.

اتـرك أثــرًا

في مراحل هذه الحياة، تمر بنا الصور والأحداث، ولا بد أن تترك فينا أثرًا، وأيًّا كان نوع هذا الأثر، جميلًا كان أم مشـوهًا، سـعيدًا كان أو حزينـًا، فإنه بالتالي يمثِّل جـزءًا من أيامنا، وذكرياتٍ تطوف بنا في هجيـع الليل إذا عمّ الظلام واشـتبكت النجـوم، وأوى كل فردٍ من حولنا إلى حياته.

ولأجـل ذلـك فلا بـد للمرء أن يسـعى سـعيًا حثيثًا ليشـيّد بناءً متناسـقًا، ويـترك أثـرًا طيبًا في حياة مـن حوله ومن يلتقـون به، لأنه سيكون في هذه الحال جزءًا من حياتهم.

كـم مرّ بنا من الأشـخاص فتركوا فينـا أثرًا كان جـزءًا من أُنْس حياتنـا، فتعلقـت نفوسـنا وقلوبنـا في أماكـن مرورهـم، وابتهجت وجوهُنا ضاحكة لورود أسـمائهم؛ لأنَّ ما تركوه لم يكن من السـهل نسيانُه ولو كان أمرًا صغيرًا في نظر كثيرين؛ لأنه لن يستطيع أحدٌ أن يتصـور مقدار أثرهم فيك إلا أنـت؛ لأنك تعلم كيف كان مرورهم ومتـى؟ فلعلـه كان في وقـتٍ كنتَ أحـوج ما تكون إلى مَن يسـعدك بكلمة، وإذ بهم يضمدون جراحك، ويوقفون نزيف قلبك.

وربما خلال عمرك الطويل لم تلتقِ بهم إلا تلك الساعة، ومع ذلك بقي ذلك الأثر إلى آخر العمر.

قد يرى الناس فلانًا قصير الفعل، وأنت تراه طويل القامة، لأنهم لم يحتاجوا إليه كما اضطررت أنت إليه، ولم ينالوا منه ما نلته، فكان بالنسبة إليهم الشخص العادي، في الوقت الذي تراه أنت أنه شخص عظيم، لن توفيه حقه مهما فعلت.

دائمًا إذا فتح الله بفضله لك بابًا إلى الخير، فاربأ بنفسك أن تضعف همتك عن الدخول إلى ما يكون فيه سعادتك العظمى، وتميزك النادر، فإن أناسًا قصرت همتهم عن فعلٍ يسير يقودهم إلى درجات المعالي، فلم يزالوا قابعين في دائرة الفلس، على الرغم من أنه لم يكن بينهم وبين السؤود إلا أن يلجوا الباب، فاحذر أن تكون من هؤلاء، فإنَّ كثيرًا منهم لما كبر سنّه، وراجع دفتر أيامه، تمنَّى أن لو يعود به الزمن ليصحح مواضع الزلل، ولكنه طلب المستحيل، لأن عجلة الزمن لا تدور في الاتجاه المعاكس، وبلوغ المعالي فرصة لها أوان محدد، وتوقيت لا يتخلَّف، فإن لم يظفر بها المرء، فلتت من يديه انفلات الطائر الذي فُتح له الباب بعد حبس، فلا أمل في لقائه.

و أكثـر مـا يزيد هـؤلاء حسرة وندامـة؛ حينما يـرون الناس وقد انصرفـوا عنهـم لأنهـم لم يسـعدوا منهـم بأثـر طيب حـال قدرتهم، وحاجـةِ من تأمَّل منهم خيرًا، فكيف وقد صاروا لا يملكون شـيئًا، ولا يستطيعون أن يتركوا أثرًا لفوات ما بأيديهم؟!!

فينبغي للعاقل إذا مرّ في مراحل حياة الآخرين أن يترك فيها أثرًا طيبًا، من بذْل جاه، وطلاقةِ وجهٍ، وحلاوة لسـان، واعتذارٍ في حال العجز، واعتراف في موضع التقصير.

ولأن قلـوب الناس تختلف، وعقولهم تتفـاوت، فإنهم قد يأتون إليـك ولا يطمعون منك إلا بكلمـة، فاحذر أن تكون بخيلاً بذلك، فلعل هذه الكلمة اليسـيرة خيرٌ ساقه الله إليك في وقت لم يوفَّق إليها من يدعي العقل والكياسـة، فتترك بسـببها أثرًا في شـخصٍ محبط قد تصور أن الحياة توقفت عند هذه النقطة، فتجعلها له نقطة البداية.

أشياءُ تخفى

مـن الخطأ أن يُحكم على الناس من خـلال النظر إلى هيئاتهم، أو حسـب ما ظهر من أحوالهم عند أول لقاء، ثمَّ اتخاذ موقف مسـتمد مـن ذلك الحكـم المجرَّد؛ دون الالتفـات إلى ما يخفى مـن أحوالهم، فبسبب ذلك يكون الحكم خطأً؛ لأنه أُسِّس على قواعد خاطئة.

تجـد فلانـًا من النـاس، جميـل المظهر، طيـب العـشرة، قريبًا من الناس؛ استحوذ على قلوبهم، وفجأة إذ بك تراه كثير الصمت، قليل التبسُّـم، قد انزوى إلى نفسـه، فتسرع إلى إصدار حكمك الخاطئ أنه قد تغيَّر أو تكبَّر أو ملَّ مصاحبة الناس، ولا تدري أو تدري بعد زمن أنـه كان يحمل جبالًا من الهموم، وأثقالًا من الأحزان، التي خالطت أنفاسه، وغيَّرت مجرى حياته، لكنه آثر الصمت؛ لعلمه أنَّ الكلام لا يغيِّر الحقائق، ولا يتخطى الأزمات.

طالما كنت أقول لجلسـائي: إياك أن تنطلق بهجومك اللاذع على أحد أصحابك؛ وتسـمي ذلك عتابًـا، وهو يحمل في طياته كلّ معاني التجريح، فأنت ترى شخصًا شامخًا أمامك شموخ الأشجار، ووجهًا

ضاحكًا كتفتُّح الأزهار، ولكنه يحمل قلبًا كئيبًا بما تحمله هذه الكلمة من معنى، فتجيء عباراتك لتكْلِم جُرحَه فإذ به ينفجر نازفًا.

ولعلِّي لا آتي بجديدٍ حين أقول: إننا مهما ادعينا الفهمَ والذكاء، فلن نصل إلى حقيقة الأمر إلا حين نكون في مثل موقف ذلك الإنسان، وهناك نعرف لماذا تبدلت أحواله الظاهرة، ونكتشف أننا وهو طالما حملنا في قلوبنا أشياء كبيرة، وأظهرْنا على صفحات وجوهنا مشاعر مغايرة؛ تُنْبئُ بالفرح والسرور، حتى جاءت اللحظة الحاسمة التي استحوذت فيها الهموم على القلوب، فإذ بنا نتغيَّر تدريجيًّا حتى يوافق الظاهر الباطن.

ولا يلزم أن تمر بنا التجربة الذاتية حتى نعرف ما يشعر به الآخرون وما يعانونه، بل يكفي أن نحسن الظن بأصحاب الأمس، وجلساء الأنس، فإذا تغيَّروا أو شحَّت منابعهم عن العطاء لفترة، قلنا: لعله جاءهم ما يشغلهم!.

القلوب الكبيرة

مما يقوله الناس إذا أرادوا أن يقنعوا أحدًا برأيٍ ما: «كبِّر عقلك»، وبالرغم من صحة هذا التعبير فإنَّ الواقع يشهد أننا بحاجة إلى القلوب الكبيرة أكثر من حاجتنا إلى أيِّ شيءٍ آخر، نظرًا للجفاف الذي حلَّ في حياتنا، فيحتاج المرء معه إلى قلبٍ يسع الآخرين، حتى يستطيع بعد ذلك أن يزرع خيرًا ليحصد ثمرًا يانعًا.

الناس يحتاجون إلى قلبك الكبير، كحاجتك إلى قلوبهم العامرة باللين والرحمة، بل وفي أحيانٍ كثيرة إلى الشفقة.

قد يستحي بعض الناس من إظهار ضعفه أمام الآخرين، أو حتى نفسه، فيبدو متماسكًا حتى ينهار دفعةً واحدة، وعند ذلك يُخرج كلَّ ما ادّخره من دمعٍ وأخفاه من عبرات.

القلوب الكبيرة تملك القلوب، وتترك أثرًا في الذكريات، وتدفع إلى بلوغ الهدف في المستقبل، وربما ضاقت الأرض بمجموعة من البشر، فوسعهم قلبٌ نابض بالحنان، خفّاقٌ بالود.

انظر في نفسك، كيف تريد أن يكون لك الناس، فكن أنت لهم كذلك.

فحين لا تريد أن تكون ساحةً للتجارب، وعرضةً للصدمات، وتفريغًا لشحنات الغضب، ومضمارًا للتكسب، فالناس كذلك لا يريدون.

وحين تريد أن يسقيك الناسُ من سلسبيلِ الوفاء، ونبعِ الحنان، ويسمعوك لطيفَ العبارة، ولينَ الكلام، فكن أنت معهم كذلك.

فمن أراد أن يَلِج إلى القلوب ويدخلَها، لابدَّ أن يملك المفاتيح التي تمكنه من ذلك، وإلا بقي طول عمره كالواقف أمام الحصنِ المنيع، يريد أن يدخل إليه ولا يهتدي إلى بوابته.

لا تظن أن دخولك إلى قلوب الناس وتلمّسَ أحاسيسهم يشعرهم هم فقط بالسعادة، حينما يجدون الشخص الذي يحس بمعاناتهم، وربما يساعدهم على الوصول إلى المرفأ الآمن، فهذا وإن كان له جوانبُ كبيرة من الصحة، فإنَّ السعيدَ حقًّا والموفَّقَ صدقًا هو أنت، لأنَّ دخولَك إلى قلوبهم وامتلاكَك لمفاتيحها يدل على أنك شخص مقبولٌ، وقريبٌ من الآخرين، وهذا يكفيك شهادة لنفسك بأنك ناجحٌ أو مميَّز.

انظـر حولـك، سـتجد أن مراكزَ كثـيرة ومعاهـدَ متعـددة تقيم الدورات لتعليـم الناس كيف يمتلكون قلوب الآخرين، ومع ذلك لا يتحقق هذا المطلب إلا لقلة من الناس.

وكثـيرٌ من الناس لم يدخل دورات تدريبيـة، ولا مراكز تأهيلية، لكنه فقط امتلـك قلبًا يحس بالآخرين بصدق، فكان هذا هو المفتاح الحقيقي الذي ملكه، وقد جعل الله له القبول بين الناس، حتى لُوِيَت له الأعناق، ولَحَظَتْه العيون.

وفي هـذه الأزمان يغفل الناس عن أعظم الأسـباب الموصلة إلى القلوب، بالرغم من أنها من أسـهل الأعمال وأقلها كلفة، وذلك من خـلال التلطّـف بالآخرين ومعاملتهـم بالرحمـة؛ لأنَّ الناس في هذا الزحام الشـديد من الأعمال، وتسـارع الأوقات وتتابعها، وتداخل الأعـمال وكثرتها، قد ينسـى الإنسـان نفسـه، ويحتاج المـرء بعد هذا الجـري الطويل الذي يقطع الأنفـاس، إلى فترة راحة تتمثل في عبارة عذبة، أو كلمة طيبة تعكس مدى رحمة القائل وعظيم شفقته، فيكون هـذا بمثابة المفتاح المؤثِّر، وإنما تعظُم المواقف ويكون لها عظيم الأثر في حيـاة الآخريـن -وإن كانت صغـيرة- إذا وافقـت وقت الحاجة إليها، ولامَست الواقع المحيط بها.

وتفكَّر في نفسك كم ثمَّنْت بعض الكلمات لأشخاص تفوّهوا بها، وتركَت فيك أثرًا عظيمًا؛ لأنها قيلت لك في وقتٍ كنت أنت أحوجَ ما تكون إليها، على أنها في حقيقةِ الحال كلماتٌ أقلُّ من عاديَّة، لو قيلت لك في غير هذا الموقف لما تركَت أثرًا.

اجتهد دائمًا أن تحقق الهدف الذي تأنس به، حين يفتح الناسُ لك قلوبَهم، فيبثون إليك همومهم، ويشتكون آلامهم، فعند ذلك ستعرف مدى السعادة التي وُفِّقت إليها وحصلت عليها؛ ليس استمتاعًا بهموم الآخرين؛ لأنه لا يخلو قلبٌ من همٍّ أيًّا كان نوعه، ولكن لأنك ستعرف آنذاك أنك تملك قلبًا كبيرًا حوى كلَّ هذه القلوب.

أعاصير الحــزن

لا أدري لماذا إذا عظم حزن المرء عجز عن التعبير، رغم ما يحمل بين جوانحه من العبارات المبعثرة التي يعجز عن ترتيبها.

قصيرة هذه الحياة، وطويلة تلك الأمنيات، فكيف تريد أن تظفر بكل ما تتمنى، والوقت دون الأمنيات؟

وقفْتُ أحدث نفسي بهدفها الذي كانت تأمل بلوغه، وأملها الذي كانت تطلب الوصول إليه، فجاوبتني: لقد ذهب أدراج الرياح، وطوته صفحات النسيان.

وتأملت، فوجدت أنَّ العاقل هو الذي يجمع شتات فكره، ويتوجه نحو هدف واحد، ولا يلتفت إلى الأماني الشاردة، ولا الأمنيات الكاذبة التي تعترض طريقه، فإذا به بعد مدة وقد حقّق مراده ووصل إلى مرغوبه، في الوقت الذي أخفق كثير من الناس عن تحقيق أهدافهم؛ لانشغالهم بالحوادث العارضة التي بددت آمالهم وأثنت عزائمهم وشتَّت أفكارهم؛ حتى فات الأوان وغرقوا في بحر الأمنيات، وقد قيل: «إنَّ المنى رأسُ أموال المفاليسِ».

وكما أنَّ الانشـغال بالحوادث العارضةِ يصدُّ عـن بلوغ المأمول، فكذلـك الأحـزان؛ فإنها إن اسـتولت عـلى قلب المـرء ضيّقت عليه عيشـه، وكـدّرت صفـوَه، وجعلته مشـتتًا يريـد أن يجمع مشـاعره، ويسـتجمع رباطة جأشه حتى يستطيع الانطلاق نحو آفاق النجاح، فلا يلوي على شيء من ذلك.

فالهموم تحصر المرء في زاوية واحدة، وفي محيط واحد، لا تختلف بعـض أطرافـه عـن بعض، فإذا بـه وقد صـار في دائرة من الشـتات لا يعرف لها نقطة بداية ولا انتهاء، كلما ظنَّ أنه أنهى مشـواره فإذا به يبدأ من جديد، ولو وحَّد همّه نحو شيء واحد، وهرب من نفسه إلى نفسه، وجمع فكره نحو هدف واحد بعيدًا عن العوارض والأحداث والمنغِّصـات، لوجدتَه بعد ذلك أكثر إنتاجًـا، وأعظم ابتهاجًا، وعلى الرغـم ممـا يتبقَّـى معه مـن آثار ناتجـة عن هـمِّ قلبه، لكنـه يمكن أن يحتوي ذلك، لأنه همٌّ واحد وليس مجموعة تؤدي إلى الشتات، وهذا هـو الفرق بين الذيـن عانقوا السـحاب، والذين دنـت همتهم حتى التصقت بالتراب.

إنَّ أهل العقل والظفر خاضوا مع همومهم حربًا سجالًا فهزموها، فلانت لهم الصعاب، وحازوا قدم السـبق، وأحـرزوا النجاح، وأما

الآخرون فقد جلسوا ينتظرون الخلاص؛ وقد وضع أحدهم يده على خدِّه وجلس ينتظر ذهاب الهمِّ وزوال الغمِّ، وإذ بهمِّه في كلِّ يوم يكبر حتى صارت همومًا مجتمعة؛ قطّعت قلبه بالحسرات، وكست حياته ثوبًا أسودَ من الآلام والمنغّصات، وهذا هو الفرق بين الفريقين، وإلا فأين ذلك القلب الذي يخلو من الهموم والأحزان؟.

ولكن إذا كان المرء قد أحسن التدبير، هان أمامه كل عسير، وصار الهمُّ أسيره بدلًا من أن يكون هو أسيرًا للهموم والأحزان؛ التي تفتُّ عضده قبل أن يصل إلى ما كان يأمله من العيش السعيد، ويرجوه من الحياة الهانئة.

فإذا طرق الحزن بابك، فاجمع إليك فكرك، وتحصَّن عنه بحصن منيع، ثمَّ وجه إليه ضربة تشتته، قبل أن يجمع جنده، ويعاجلك برمية تطيش بعقلك، ثمَّ يستولي عليك بقية عمرك، فلعلك إذا اعتدت عليه وألفْته؛ لن ترغب أن يفارقك، حتى ولو عزم هو على الرحيل، فتبقى في عداد أهل الكآبة، الذين شحبت ألوانهم، واسودّت وجوههم، وضاقت صدورهم، وعاشوا بنفوس منهزمة وقلوب ضعيفة؛ حين صار الهمُّ جزءًا من حياتهم كلما غاب افتقدوه.

إنـك لن تعيش إلا مرة واحدة، فلا تفـرط باتخاذ القرار في لحظة حاسمة، وإلا فستندم بعدها إلى آخر العمر.

إنـك لن تعيـش إلا مرة واحدة، فـلا تُضِع الفرصـة، ولا تخطئ الهدف.

اكتب نفسك

حين كنت أقرأ لبعض أهل الأدب والشعر وأنا صغير، كنت أتخيله قد جلس على طاولة، ووضع بجانبه فنجانًا من القهوة، ثم بدأ الكتابة على هذه الهيئة حتى أتمّها، ليخرج لنا بعد ذلك محصول كتابته، وكأنني كنت أرى أنه لم يستطع الكتابة والتدوين إلا بهذه الطريقة، طاولة.. فنجان قهوة.. غرفة مغلقة.. وسكون ليل.

فلما تقدمت بي الأيام أو تقدمْتُ نحوها، وبدأت أدون كتاباتي، علمت أن الهيئة ليس لها علاقة بمضمون الكتابة، فالهيئة، وطريقة الجلوس، وكيفية الكتابة تكون للكاتب، أما القارئ فليس له إلا النتيجة، وقد يترك فيه كتابٌ أو مقالةٌ أعظم الأثر، وكان كاتبه قد خطَّه في سيارته أو وهو مستلقٍ على فراشه، لكن لأن هذه الكلمات قد وافقت جوًّا عاطفيًّا وصدق شعور، صارت مؤثرة في نفس قارئها.

وعليه فإن من المناسب إذا وردت لك فكرة أن تعلم أنها صيدٌ إن لم تقتنصه فرَّ، وأفلست منه، فسارع إلى تدوينها كاملة حتى تبقى متماسكة على نسقٍ واحد، فقد تمرُّ بك بعض الكتابات لكاتب واحد،

ومع ذلك يأخذك الاسـتغراب نظرًا لما فيها من التفاوت بين الجمل، حتى تشك أنها لكاتب واحد، وسبب ذلك تغيُّر المكان، والتنقل بين الأمكنة، فتختلف المشـاعر بين مكان وآخر، وتتغيَّر نفسية الكاتب، فينعكس ذلك على الكتابة.

لماذا تجد بعض القصائد وقد عاشت مبتورة الأبيات، أو لم يُكتَب لها التمام؟

ربـما لأن صاحبها قد بدأها في موضـع معيَّن، ثم انتقل إلى مكان آخر، تغيَّرت معه المشـاعر، وتحولت فيه الأحاسيس، فلم يستطع أن يكملها على نفس السـياق، فتركهـا معلقة بين النقص والتمام، يطمع أن يتوفـر لـه نفس الجو الذي بـدأ به كتابتها، فلـما لم يتوفَّر بقيت على حالها، بل ربما بقيت بيتًا يتيمًا، أو شطرًا حائرًا.

ولقـد مرّ بي مثـل هذا الحال مـرات عديدة، فقـد أشرع في كتابة مقالةٍ أو أبياتِ قصيدة، ثم يأتيني ما يقطعني عنها فتبقى سنوات على حالها تنتظر أن تتم، وأنا لذلك أشـد لهفًا، فأعجز عن إتمامها، فأنظر إليها بأسى، لإحساسي بأنها لو تمت لكان لها أثرٌ جميل، إن لم يكن عند من يقرأها، فعلى الأقل عندي.

ولذا يجب أن نستثمر الفرصة إذا جاءت إلينا، ولا نتركها تفوت بسهولة، فإنها هدية بلا كلفة، وربما إذا ذهبَت لن تعود، فيصعب تعويضها، ويزداد عليها الندم؛ لأن الشعور الذي دفع إلى الإقدام عليها شعور صادق سينعكس على أحرفها ومبانيها.

كنت دائمًا أوصي من أعرف أن يعتاد الكتابة، وأن يجعلها من مهامِّ حياته، حتى لو كانت في بداية أمرها مبعثرة، لأنها حتمًا ستكون مشاعر حقيقية صادقة، سيحتاج يومًا من الأيام أن يشبع فراغ قلبه من خلال النظر فيها، والأجمل أن يسعى إلى ترتيبها، ويقدمها هدية لغيره، فيقرأها مبتهجًا بها، وربما يحدث نفسه قائلًا: «وجدتُ من يشعر بي»، وسبب ذلك أن الكتابة لم تكن من نسج الخيال أو لأجل الكتابة فقط، بل إنها كتبت في حالٍ واقعي صادق، ولذلك لما لاقت قلبًا خاليًا حلَّت به، وكان لها عظيم الأثر.

التجــارب

التجـارب تعلِّـم الإنسـان، وتصقـل المواهـب، ولا شيء أنفـع للإنسان من التجارب التي تمرُّ أمامه، أو يكون جزءًا منها.

وإن كنـت متعجبًا، فليكبر عجبك من شـخصٍ يكون جزءًا من معاناةٍ مرت به على أيدي الآخرين، فلما دار به الزمان فإذ به يسـقيها لغيره بكأسٍ من جحود.

رأيـت ابنًا كان يشـتكي من والـده ليل نهار، ويتذمـر من طريقة معاملته معه، قسـوة، وغلظة، وظلمًا، وشُـحًّا في المشاعر والمال، فلما مـرت الأيام ودار الزمان دورتـه وأصبح ذلك الابن في مقام الوالد، إذ بـه يكرر مـع أولاده فعـلَ والده الذي كان يشـكو منـه بالأمس، ويسقيهم ما كان يذوقه من الحرمان والألم، وكأنه ينتقم من والده عن طريق أولاده الضعفاء، فحرمهم العطف والحنان، وقتَل مشـاعرهم وأحاسيسـهم، و كأنهـم جماد لا يَعُون ولا يشـعرون، فـما أغنت عنه التجربة شيئًا، ليس لأن التجارب لا تعلِّم، ولكن لأنها صادفت قلبًا غافلًا، وعقلًا مضطربًا.

يحدث أحيانًا أن يشتكي لي ولد ظُلْم أبيه، أو تشتكي إليَّ امرأة من جفـاء والدتها وجفاف علاقتهـا معها، أو غير ذلك، فكنت دائمًا أبدأ عبارتي بقولي: احمد الله أن جعلك في هذا المقام حتى تأخذ منه درسًا، وتسـتفيد منه عبرة، لأجل أن لا تكرر هـذا الفعل مع أولادك، فهذا درس قد جاءك بالمجان، فلا يعرف مقدار الألم إلا من ذاقه.

لا أعني أنَّ هذه التجربة هينة أو مفيدة من كل جانب، بل الحقيقة أنها قاسية ومؤلمة، لكن بمقدار الألم الذي تسبب به غيرنا لنا، سنجد حلاوةَ فعلنا إذا ما سـقينا غيرنا عكسـه، وجنَّبْناه ما ذقناه في سـالف الأيام.

وعلى الرغم من ذلك أرى من المناسب أن يكتم الإنسان مشاعره في داخله، ولا يتحدث بها أمام أبنائه، بل عليه أن يجتهد في إسعادهم دون التعرض إلى والديه بكلمة نقدٍ أو تنقيص، فلعل الأيام ستطول به، ويجد لهم عذرًا فيما فعلوه، وربما لا يجد عذرًا، ولكن كبار النفوس هم الذين يتحملون الألم، ويجعلونه دافعًا لأن يعيشوا عيشة كاملة أو قريبة من الكمال.

ربما أن بعض الناس يظلم نفسه في طريقة معاملته مع الآخرين، فهذا متسـلط في عمل، وهذا متجاوز في علاقة اجتماعية، وغير ذلك

ممـا تختلف فيه نفوس الناس، لكن الموفَّـق هو من جعل هذه المرحلة الماضية دافعًا له إلى النجاح في المستقبل.

لا تتوقف كثيرًا عند لماذا فعلوا؟ فهذا السـؤال سيبقيك واقفًا في مقامك دون حراك، وهذا هو الفشل، بل ليكن سؤالك: ماذا سأفعل اليوم؟ وماذا سأحصد غدًا؟

لا نكن مثاليين أكثر من اللازم، لكن حتى نعيش سعداء إلى حدٍّ كبـير يجـب أن نكون واقعيين، فـإذا مرَّ بك أمـرٌ وأردت أن تتجاوزه فعليك أن تسلِّي نفسك بقولك: هذا هو الواقع.

نعـم، الواجـب علينا أن نطمـح إلى واقع جميل، وحياة سـعيدة، وعيـش هانئ ما اسـتطعنا إلى ذلك سـبيلًا، لكن إذا لم يتحقق فسـلِّ نفسك محدثًا إياها: «هذه هي الحياة».

وعـلى الرغم مـن ذلك؛ فإيـاك إن مـرّت بك تجربة مـن تجارب الحيـاة أن تبـدي عجزك حتى من الاسـتفادة منها، فـإن ذلك منتهى العجز والتقصير.

الحنين إلى الماضي

الحنين إلى الماضي شعور مركب في كثير من البشر، وقد يكون علامة فارقة يتميّز بها من فازوا بهذه الخصلة، وأقول: فازوا ولم أقل اتصفوا؛ لعلمي أن هذه الصفة مضمار يتسابق فيه الكثير، على الرغم مما يكون في الجانب الآخر من أُناسٍ لا تمثِّل لهم هذه المشاعر أيَّ اعتبار.

الحنين إلى الماضي يشعر به المرء إذا بدأ السنُّ يتقدم به، فيتذكر مرابع الصبا، وضحكات الطفولة، وأصدقاء الصدق، قبل أن يُعرَف الكرُّ والفرُّ، ويُمتَهن المكر.

ولا يقف هذا الحنين عند هذا الحد، بل هو علامة على الوفاء لمراحل اقترنت في حياته يتمنى أن لو تعود إليه، ولكن لعلمه أنها لن تعود تجده يزداد بها تعلقًا.

الأشخاص، الأحداث، لهم أثرٌ في حياة الناس، بل وحتى الأسماء، فهناك اسم اقترن بذكرى مفرحة، واسم اقترن بموقف بائس أو حزين.

ليست المسألة شعورًا فقط، بل إنَّ الحنين دليل على رقة القلوب، ولين الطباع، والشـوق إلى صفات جميلة بدأت تُنتقَص أو تتلاشـى، بسبب المحيط الذي نعيش فيه ويحتضننا رغمًا عنَّا.

كانت العرب تقول: إذا أردت أن تعرف الرجل فانظر كيف تحنُّنُه إلى أوطانه، وتشوُّقُه إلى إخوانه، وبكاؤه على ما مضى من زمانه.

قمة الوفاء، وغاية النبل والرقة.

ألا تعتقد أن الشوق إلى هذه الأشياء، كان بسبب ما اقترن بها من مواقف و أحداث، إذا لاحت أمام ناظر المرء سحبت معها سيلًا من الذكريـات، وانفجر معها ينابيعُ من مشـاعر الوفاء، تغذي القلوب، وتروي الظمأ؟!.

ربـما لن يستشـعر المرء هذا الحنين مـا دام باقيًا في نفـس الدائرة، ويعيش في نفس الجيل، فإذا تخطَّى المراحل نحو حقبة أخرى، حنَّ لما سبق وتمنَّى أن لو كان في ذلك الزمن الذي مرّ وكأنه لحظات.

ربما لن تستشـعر أن هذا الشعور صفة نادرة، وسبقٌ حقيقي، إلا إذا تقـدم العمر، فسـتعلم حـين ذاك أنه علامة من علامـات الحياة، فالمرء الموفق هو الذي إذا كبر سنُّه، رقّ قلبه، وبكى على ذنبه، واشتعل

الحنين في قلبه، فتجده يراجع الأيام السابقة، فيُصلِح ما فسد، ويصل ما انقطع، ويحاول أن يزرع ذكرى قبل رحيله.

إنَّ الجـرح الـذي لا دواء لـه، هـو أن يعيـش المـرء صراعًـا بـين شـعور دفـين في قلبه يعلم أنـه هو الصواب، فيكتمه رغـمًا عنه خوفًا مـن انكسـاره، أو لتوهُّمِـه أن هذا نـوع من الضعف، فـلا يزال يكتم أنفاس مشـاعره حتى يتكلّف طبعًا لم يتمنَّه بداية، لكن لم يلبث حتى صار له صفة بارزةً، وخلقًا لم يسـتطع التخلص منه؛ فإذ به قد وقف وقفة المضطرب، فلا هو بالذي فاز بمعانقة مشاعره وأُنْس ذكرياته، ولا هو بالذي مضى في طريقه ثابتًا على ما خطه لنفسه.

الحنـين إلى الماضي ليس ضعفًا، إياك أن تتصور ذلك، بل يكفيك حـين تذكُّـره أن تعلم أنّ لك ماضيًـا جعلك تصل إلى المسـتقبل، في الوقـت الذي يعـاني الكثير مِن أنهم ليس لهم حاضرٌ يسـتمتعون به، ولا مـاضٍ جميل يخفـف عنهم ضيق هـذا الواقع الذي يعيشـون فيه محبطين.

فإذا أردت أن تعيش غايةً من السـعادة، ففجّر مشـاعرك، وحِنَّ إلى سالف أيامك، وذكريات طفولتك، وخذ منها ذلك النقاء لتجعله

سمةً لك حين تقدُّمِ سنك، لتُحسن إلى من حولك فتنال المجد، ويرق قلبك فتستشعر حقيقةً أنك إنسان.

بين طريقين

أصعب ما على المرء أن يكون بين طريقين، ويقف أمام اختيارين، فلا يدري أيّ طريق يسلك؛ ولا أيّ رأي يختار.

كان يُـدلي إليَّ بعـضُ الناس بـما يعانيه من المشـاكل؛ وما يكابده من الهموم، وكنتُ إذا رأيت أنَّ مشـكلته لا حلَّ لها؛ وأنَّ اسـتمراره فيها يكبّده الخسائر الجسيمة، المتمثلةَ في ضعفِ صحته وخُوارِ قوّته، كنـت أقول لـه كلمتي التي طرقْتُ بها أذن غير واحد: «الإنسـان لن يعيـش إلا مـرة واحدة»، وكنت أقصد بها: احـزم رأيك وقوِّ عزمك لاختيار أحد الخيارات، مهما كان فيه من الألم والسلبيات.

ولأننـي كغـيري من البـشر، تقع لي بعـض المشـكلات؛ وتمرُّ بي بعـض الظـروف، كنـت أقلّـب طرفي بـين تلـك الحلول التـي كنت أضعها لغيري، حتى أصل إلى مقولتي: «الإنسـان لن يعيش إلا مرة واحدة»، فلا أسـتطيع الاختيار؛ ولا الإقـدام على أيِّ خيار؛ لوجود كثيرٍ من الموانع التي تحول دون الوصول إلى هذه النتيجة.

وهاهنا علمت موقنًا أن الواقع النظري يختلف عن الواقع العملي، وزال استغرابي حين كنت أرى من أدلَيْت له بتلك القاعدة العزيزة ولم يزل يدور في فلك مشكلته، ويترنّح بسبب ما يحمله من الأثقال، ثمَّ انتبهت إلى الحقيقة، وهي أنه لربما لمس من الواقع ما لمست؛ ووجد من الموانع ما وجدت، فوقف في مكانه يفكِّر ويفكِّر، ولا يدري أين سيقف به تفكيره.

وتعلَّمت من هذه التجربة التماسَ العذر للآخرين، فطالما طالبْنا الناسَ باتخاذ موقفٍ في قضيةٍ ما؛ لأنَّ لنا متعلَّقًا بها من جهةٍ أو أخرى، وربما عاتبناهم على تأخرهم بحسم الموقف، فلما صرنا في نفس الدائرة، علمنا أنَّ هناك أشياءَ أخرى لم تظهر على الساحة، ولم تبدُ للعيان.

وهذا لا يعني أن التنظير خطأ، ولكن حين النظر إلى الواقع تختلف أحوال الناس بالنسبة إلى الأخذ به أو ردِّه، ولو لمْ تستفد من خوضِ غمار هذه التجربة إلا التماس العذر للآخرين حين يتأخرون في قبول رأيك، لكان كافيًا، فكيف بك إذا ارتقيت بأحاسيسك حتى تستشعر حقيقة مقدار ما يعانونه من الألم؟!.

رسالة إلى مغترب

لا أدري لماذا وأنت تودِّع صاحبًا كان ملازمًا لك في بعض أيام حياتك، فكأنك تتيقن إنْ لم يحصل الفراقُ بالموت؛ فلا بدَّ من فراقٍ في هذه الحياة.

ففلان ودَّع ابنًا، وذلك ودَّع قريبًا، والآخرُ ودَّع صديقًا على أمل أنْ يتجدد اللقاء، وقد لا يتجدد؛ لكن على الأقل يبقى مجردَ أمل.

وما أصعبه أن يعود المرءُ ليجد من انتظره وقد رحل عن هذه الدنيا، أو أن يحلَّ بالمسافر الأجل، فلم يجْنِ الحاضرُ سوى الانتظار.

ودَّع فلانٌ ابنَه الشاب ليغترب في بلدٍ بعيد من أجل الدراسة، وفارقه وكأنه يفارقُ روحَه التي بين أضلعه، ولم يزل يذرف تلك الدموع المتتابعة طمعًا أن تطفِئ لهيبَ فؤاده؛ حتى رحل وكأنه استودعه قلبَه.

يا راحلًا وجميلُ الصبر يتبعُه هل من سبيل إلى لقياك يتفقُ
ما أنصفَتْك دموعي وهي داميةٌ ولا وَفى لك قلبي وهو يحترقُ

وقبل أنْ يمضي أوْدَعَه رسالةً يعبِّر فيها عن مكنون نفسِه وفيضِ مشاعره، وإذ فيها:

بنيَّ: عشتَ سنينَ عمرِك في كنفي، ما كنت أحسب أننا سنفترق ونحن على قيد الحياة، كنت أراك أمام عيني تكبر يومًا بعد يوم، وكأني أرى فيك نفسي، وأنتظر لحظةَ تحقيق أحلامي من خلالك، لا لِأَجمعَ عن طريقك مجدًا، أو أجني منك مالًا، ولكن لأنك نفسي، بل قل: روحي.

بنيَّ: إذا تغرَّبَتْ بك البلدان، ونأتْ بك الديار، فاذكر أبًا يذكرُك مع إشراقة كلِّ شمس، وأمًّا تنام على جميل ذكراك، فلا تنقطعْ عنهم مشتغلًا بذاتِ نفسك، فلربما تحركت أوراقُ الشجر فتذكِّرُهما بحركاتِ طفولتك، ونديِّ صوتك.

هنا كلُّ شيءٍ يذكِّر بك، دارُك التي تحن إليك جدرانُها، ألعابُك التي لا زلتُ أحتفظ بها، كتبُك التي لم أزل أجمعها منذ بدايةِ دراستك لتكون ذكرى جميلة.

لا زلتَ أنت هنا، ولم تزل في مخيِّلَتي ذلك الطفلُ الذي سرعان ما مرَّت الأزمانُ حتى صار رجلًا يشقُّ طريقَه ليحقق طموحه.

بُنَـيَّ: أنت مسـافر لتحصـل على علـم، فإياك أنْ تخسرَ نفسَـك، فتعـود لتحمل فكـرًا منحرفًا يزيِّنُه لك بعـضُ المفتونين، ويزخرفونه كذبًا بزخرف الحضارة والتقـدم، فإنك إنْ فعلتَ ذلك كنت خنجرًا مسـمومًا في قلب مجتمعِك، واعلم أنَّ الفـوزَ الحقيقي في نهاية الأمر هو احترامُك لنفسك.

أنـت فتًـى في مقتبـل العمر، وشـابٌّ يافع، سـتنفتح على مجتمع بالنسـبة لـك جديـد في كل شيء، فلا تنخـدعْ بالأضـواء، ولا تنبهر بشـعاعٍ سرعـان ما ينقطـع، واعلـم أنَّ الظّفَر هو ما سـتحصل عليه أنت، وما سـتجنيه يدك في الحقيقة، وليس ما يقوله الناس وينسـبونه إليك ولم يكن لك منه شيء.

بنـيّ: كن وفيًّا لإخوانك وأخواتـك، الذين صاحبوك على مدى عمرك أو أعمارهم، فهم لا زالوا يترقَّبون قدومك، ويرددون اسمك، ويدوّنـون مواعيد قدومك إليهـم، فاحذر أن تلقاهم بشـعورٍ بارد، أو عاطفـةٍ كأنـك مرغـمٌ عليها، فـإنَّ ذلك يضعـف الروابط ويزرع الوحشة.

وعليـك بالوفاء لأصدقائك الذين يحبّـون لك الخير، ويفرحون لتقدمـك، ويشـتاقون لأيامك، لا سـيّما مـن لازَمَـك ولازَمْتَه منهم

حتـى لحظة الفراق، فإنَّ الوفاءَ من شـيم الكرام، فـلا تنقطعْ عنهم، وكن معهم كما كنت في سالف عهدك.

بنـيّ: وإذا حقـق اللهُ لـك المطلـوب، ورجعـت إلى بلـدك، فكن عنـصرَ بنـاء في مجتمعك، واحـذر من أفكار السـوء الهدامة، وعليك برعاية الفضيلة، فإنَّ الناس أحوج ما يكونون إلى أخلاق الخير.

وعليـك بالتواضع للناس والتوددِ إليهـم، ومهما حصلت عليه من شـهادة فإياك والغرور، واعلم أنَّ الناس في هذا الزمان بعضهم عـن بعضٍ غنـي، ومَن لم يكسـبْهم بأخلاقـه ولينه وقربِـه فإنهم لن يبالوا به.

بنيّ: اختلطت المشـاعر، واضطربـت العبارات، فما عدت أدري ماذا أكتب وماذا أذر، ولكن يُغني عن كثير العبارات وسيل الكلمات؛ قولي: «إني أحبك».

صديقٌ لا يملُّك

تأملت في الأصدقاء، فوجدت أن أقربهم بالنسبة إليَّ «الورق»، وقد كنت أوصي كلَّ من درَّستُه، أو كان بيني وبينه علاقة أن يتخذ هذا النوع صديقًا، وأن يهتم به غاية الاهتمام، لأن فيه من المزايا ما لا يجتمع في غيره من الأصدقاء، فهو الذي يتسع صدره لأطروحاتك، ويتلقاها دون ضجر، وهو الذي يستمع إليك حينما تتحدث، ولا يقاطعك حينما تسترسل في الكلام، بل ينصت إليك دون نَفَس، ولا يشمت بك إذا أظهرت عجزك عن شيء، أو ذَرَفْتَ دموعك لأجل شيءٍ.

وهو الوحيد الذي يمكنك أن تبدي له أسرارك فلا يفشيها، وتستودعه عباراتك فيحفظها.

وإذا طال بك الزمن وأردت مؤنسًا، قلَّبْتَه فوجدت فيه جميلَ الذكريات التي تصاحبها ابتساماتك، وحزن الذكريات التي ربما تدفعك إلى الأمام.

انظر في نفسك، كم حدث أن اجتمعت في داخلك بواعثُ الألم، حتى تشكلت عبراتٍ خفية، ودموعًا تتمنى أن تنهمر، فاستحييت أن تبثها لأصدقاء الحياة، فإذ بصديقك الوفي يدعوك أن تبث وجدك بين ثناياه، لتشعر بعدها بالراحة.

في حياتنا قد نأتي إلى صديق من أجل أن نحدثه عن همومِنا، متاعبنا، آمالنا، آلامنا، فإذ به قد جاء ما يشغله عن سماع ذلك منّا، إلا هذا الصديق، كلما أردت أن تحدثه عن شيءٍ مِن ذلك، لم يشغله شيء عنك.

قد نرتاح لشخصٍ ما، نريد أن نحدثه عما نحسّ به، وإذ به يتمنى أن نستمع إليه أكثر من استماعه منّا، أمّا ذلك الصديق فليس فيه من المعاناة والآلام والآمال إلا ما تخطه أنت فيه وترسمه عليه.

مما يميِّز هذا الصديق أنك تحدث نفسك عنك، وتشكو إليك منك، وتظهر سلبياتك، وتفرح بنجاحك، وترسم أهدافك، فتصل من خلاله إلى قلبك الذي لن يستطيع أحدٌ أن يملأه بالعاطفة إلا أنت، وبالطريقة التي تعرفها جيدًا دون مكابرة، ودون أن يقطع عليك أحدٌ الطريق باقتراح بعيد أو فهم محبط، أو عبارات تكسر الهمة.

ربما لن يعرف قدر هذا الصديق حقًّا إلا من امتهن الكتابة، حتى لو كانت مبعثرة، وأعظم الدلائل على ذلك أنه حين لا يفهمك أحدٌ، بدأت تسجل شعورك على الورق وكأنك تخاطب الآخرين بقولك: «هذا ما أعنيه».

الواقع محبط، والناس بين مشغول بما أنت مشغول به، أو آخر لا يعنيه أن يفهم ما تقول، بل ويبخل أن يبذل من وقته ولو لحظات ليستمع إلى ما تقول فضلًا عن أن يفهمه، وآخر تأتيه وأنت مقبلٌ بكل ما فيك لتسجل له موقفًا عندك أنه استمع إليك في لحظة كنت تبحث عمّن يسمعك، فإذ برده الذي يُمثّل لك صدمةً وإحباطًا وبعثرةً لا يمكن لَمْلَمَتُها، وعند ذلك توقن أنه لا أوفى لك ولا أصدقَ صاحبًا من الورق.

رأيت بعض الناس قد يلجأ إلى شخصٍ لا يعرفه، ربما كان طبيبًا أو مستشارًا أو غير ذلك، ليفتح له قلبه، ويتكلم في كل شيءٍ بأريحية ودون قيود، وربما سالت عبراته وأبدى انكساره، وأظهر مكنونه، وإنما فعل ذلك لأن هذا الأجنبي لا يعرفه، فالمعرفة تُبقي ضوابطَ الرسمية ومخافةَ الصدمة بأنْ لا يبالي بإحساسه، فلجأ إلى ذلك

الأجنبيِّ، ونظير هذا الشخصِ الأجنبي صديقُنا الورق، فهو الوحيد الذي يمكنك أن تزيل معه مشاعرَ الكلفة، والحواجز المانعة.

حقيقة لا أدري ما أقول عن هذا الصديق، جرِّب أن تصاحبه أيام عمرك، بثَّه مشاعرَك المبعثرة، فسيأتي زمنٌ وترتِّبُها وتكون منطلقًا لك نحو الهدف، ارسم معه أحلامك، سجل به آلامك، خطط به مستقبلك، وعلى فرض أنك لم تحقق شيئًا من ذلك، فيكفي أنك وجدت الصديق الذي يستمع إليك بكل ما فيه، وهذا بحدّ ذاته مكسب لا يستهان به بحال من الأحوال.

ضجيجٌ لا بدَّ منه

هـل جربت أن يسـافر أبنـاؤك إلى جهة ما؛ ثم تدخـل بيتَك وقد خلا منهم؛ فيزعجُك هدوؤه، وتشتاق إلى شيءٍ من ضجيج؟.

لطالما شـكونا نحـن معاشرَ الآباء مـن إزعـاجِ أبنائنا، فنضيق ذرعًـا ببـكاء الصغـير وصراخ الكبـير، فـإذا غابـوا عـن أنظارنا؛ فإذا بالمسـامع تشـتاق إلى دَويِّ أصواتهم، وتحـن الأنظارُ إلى خيال رسـومهم، ونوقن هنالـك أنَّ جمال المنزل حين بـدا جميلًا إنما كان مستمدًّا من وجودهم فيه.

لا تزال تقلب عينيك في زوايا المنزل مستحضرًا شريط الذكريات؛ فعلى هـذه الأريكة جلَسَـت فلانة، وعلى هذا الكـرسي صَعد فلان، وهنـا أظهرت فلانةُ مواهـبَ الصغار فازداد المنـزل فرحًا وابتهاجًا، هنا سـقط فـلان، هنا لعب فلان، وهنا غلبنـي النوم فجاءت طفلتي الصغـيرة ذاتُ الأربعـة أعـوام بقطعةِ قـماشٍ خفيفة -تظنهـا ببراءة الطفولة أنها تجلب الدفء- فغطَّتني بها.

ما أجملَ الحياة بهم.

أرأيتَ جسـدًا تعيش معه سـعادةَ الأيام، فإذا فارقْتَه عشـت على ذكرياته لتستجلب شيئًا من حنان؟

قرأت قصيدة لأحدِ الشـعراء يحكـي تفرُّقَ أبنائه في البلدان، بعد اجتماع الأرواح والأبدان، وكنت أستعذبُ تلك القصيدة، فلما قرأتُها لحظة فراقي لأبنائي وتباعد الأجساد بسـبب السـفر، فإذ بالقصيدة أعذب؛ وعباراتِها من النفس أقرب.

فهـذا رجل يحكـي اجتماعه بأبنائه، مع تلاصقِ الأرواح وتمازجِ القلوب، فلما تفرقوا فإذ به يستنطقُ حديث الذكريات..

أين الضجيجُ العذْبُ والشَّغَبُ	أين التدارسُ شابه اللَّعِبُ؟
أين الطفولةُ في توقُّدِها	أين الدُّمى في الأرض والكتبُ؟
أين التشاكس دونما غرضٌ	أين التشاكي ما له سببُ؟
أين التباكي والتضاحكُ في	وقتٍ معًا، والحزنُ والطربُ؟
أين التسابقُ في مجاورتي	شغَفًا إذا أكلوا وإن شربوا؟
يتزاحمون على مجالستي	والقربِ مني حيثما انقلبوا
فنشيدُهمْ: «بابا» إذا فرحوا	ووعيدُهم: «بابا» إذا غضبوا
وهتافُهم: «بابا» إذا ابتعدوا	ونجيُّهم: «بابا» إذا اقتربوا
بالأمس كانوا ملءَ منزِلنا	واليوم، ويحَ اليوم قد ذهبوا
وكأنما الصمتُ الذي هبطت	أثقالُه في الدار إذ غربوا

ذهبوا، أجل ذهبوا، ومسكنُهم ... في القلب، ما شطُّوا وما قرُبوا
إني أراهم أينما التفتتْ ... نفسي وقد سكنوا، وقد وثبوا
وأحسُّ في خَلَدي تلاعبَهم ... في الدار ليس ينالهم نصبُ
وبريقَ أعينِهم إذا ظفروا ... ودموعَ حرقتِهم إذا غُلِبوا
في كلِّ ركنٍ منهمُ أثرٌ ... وبكلِّ زاويةٍ لهم صخبُ
إني أراهم حيثُما اتجهَت ... عيني كأسرابِ القطا سربوا
دمعي الذي كتمتُه جلدًا ... لمّا تباكوا عندما ركبوا
حتى إذا ساروا وقد نزعوا ... من أضلعي قلبًا بهم يجبُ
ألفيتني كالطفل عاطفةً ... فإذا به كالغيث ينسكبُ
قد يعجَب العذّالُ من رجلٍ ... يبكي، ولو لم أبكِ فالعجبُ
هيهات ما كلُّ البكا خورٌ ... إني- وبي عزمُ الرجال- أبُ

لا أجملَ من هذا الوصف، ولا أدقَّ من ذلكم التصوير.

وعلى قدر ما تكون حياتُك لأولادِك، تجدُ ألمَ الفقدِ وحرارةَ الفراق، ولكن يهوِّنُها أملُ اللقاء وجميلُ الذكريات.

وحتى يكونَ لك في قلوبهم مثلُ ما لهم في قلبك؛ تميَّزْ بعطائِك؛ وكن كريمًا بمشاعرك وأحاسيسك، وامْلأ قلوبَهم بالعواطف الرقيقة الصادقة حين يكونون في ضيافتك، فإنَّك عما قريب ستكون في ضيافتهم وتحتاج إلى أن يغذوك بمثل ما كانوا يتمنون أن يجدوه

عندَك حال عيشـهم في كنفك وتحت يـدك، وإنما يتميز الناس بعظيم وفائهم؛ وكبير عطائهم.

ولا أعجـبَ من رجـل يعيش مـع أبنائه حياةً جامـدةً؛ يغذوهم مـن خلالها قسـوة الطباع؛ حتـى إذا تقدم عمرُه، ومضـت أيامُه، إذ به يطالبُهم باحتضانه عاطفيًّا، وقد كان بخيلًا بمشـاعره، فإذا لم يجد ذلـك مال إلى الأنين والشـكوى، ولو أنصف لوجد أنَّ ما كسـبه هو ناتجُ فعله، وصنيعةُ يده، وحصادُ سعيه.

ولا أعنـي أن ذلـك مبررٌ للعقوق، ولكن سـقْتُه لبيـان أنَّ الحياةَ سـلفٌ ودَين، والإنصافُ يدعوك أنْ لا تطلبَ من الناس ما قصَّرْتَ عن تقديمِه لهم؛ وليس ثمةَ ما يمنعُك، وهذا مما يدعوك إلى الاجتهاد في البذل والعطاء حال كونك تملك ذلك.

طمع النفس

مـن أعجب الأمـور أن تطمع نفس المرء إلى بلـوغ شيء تعلم أنه بالنسـبة إليها صعب نوالـه، وإنما مثل الذي يطمـع بشيء بعيد حتى عن مستوى إدراكه، كمثل الذي يركض إلى غير نقطة نهاية.

هكـذا نحن بني البشر، لا نزال نطمع ونطمع، بل ويقتلنا سُـكْر الطمع حتى نفيق وليس في أيدينا شيء.

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى   فـإن أُطْـمِـعَـتْ تـاقت وإلا تسلَّتِ

آهٍ لحلـم تعلق به شـخص حتى كدَّر حياته، وذهب بسـببه صفو أيامه، فلم يستطع نسيانه ولم يقدر على تناوله، فعاش بين رحى الفقد والتمني.

كم حدثتُ نفسي أنه لو أقنع المرء نفسـه بواقعِه؛ لارتاحت نفسه إلى حدٍّ بعيد، ولو درَّب نفسه على قَطْع التفكير بالمستحيل لانتظمت حياتـه، وإلا فكل امـرئٍ عنده أمنية كبيرة، لكن هـل تفكر يومًا هل يمكن أن يصل إلى هذه الأمنية أم أنَّ ذلك محض خيال؟.

نعم، طمع النفس ليس له حدٌّ؛ ولكن علمُ المرء بأن ذلك الطمع ليس وراءه إلا ألم الفقد ربما يجعله يقف على بُعْد مسافة من اقتحام المجهول.

حاولت أن أُقنع نفسي بأن تتجنب سلوكَ طريقِ الطمع، فأبت، وكأنها تقول: الطمع قرين النفس، فلا تتقحَّم المستحيل!.

غدًا سيكون أفضل

كـم هو جميـل أن تردّد دائـمًا عبارة: غـدًا سـيكون أفضل، حتى تعيـش متفائلًا، ولأجل أن تكـون هذه العبارة دافعًـا لك إلى الصبر على ما تعانيه من الهموم، وتكابده من التعب واللأواء.

أعـلـل الـنـفـس بـالآمـال أرقبها　　　ما أضيقَ العيشَ لولا فسحةُ الأملِ

وهـذه طبيعة النفس البشريـة إذا فاتها شيءٌ تشـاغلت عن فواته بالتسلي، وقطعت طمعها عن التشوُّف إلى غيره.

نتجـاوز المراحـل إلى حيث نجد الراحـة؛ أو نطمع أن نجدها في وقـت مليءٍ بالهموم والأحزان والمنغّصـات؛ حتى لا تكاد تجد فرحةً إلا ومشـوبة بشيء من الحزن، ولا تلبث أن تتذوق طعم السعادة إلا مخلوطًا بشيءٍ من الألم.

نقلب صفحات الماضي لنتجاوز أحزانه في الحاضر، وقد يسـتمر الحال بسـلام حتى بلوغ الهدف، وقد نجد أن صفحات ذلك الماضي قد تشـكلت مسـتقبلًا بانتظار قدومنا إليه، ليصبـح حاضرًا يصعب أن نتخلـص منه، فكيـف إذا كان هذا الواقع لم يزل مرافقًا لك طوال

حياتك مرافقة الظل الذي لا تكاد تهرب منه إلا حين يختفي الضوء، فتنـزوي إلى ذات نفسـك لعلـك تتخلص من ذلـك الواقع الحقيقي بالهـروب إلى واقع ليس موجودًا على الحقيقة؛ لكنه فقط مرسـوم في الخيال.

سرُّ جمـال الحيـاة ربما يكمـن في التخلص من تداعيـات الماضي، والإعـراض عـن تقليـب صفحاتـه، طمعًـا في أن تقوم برسـم قصة جديـدة تبـدأ أول فصولهـا عند لحظـة التخلص من الظـلام المحيط بك، حتى لو كان السـبيل إلى ذلك هو الهـروب من الضوء المتوهم؛ لتحصـل على حيـاة واقعيـة بعيدة عـن الأضـواء، لكن بغـدٍ أجمل، وتطمع أن يكون أفضل.

كأنها البارحة

شعور يخالجك دائمًا ولو كنت تزعم خلافه، ظنُّك أنَّ العمر يقف عند نقطةٍ محددةٍ، فلا يتقدم ولا يتحرك، وفجأة يمر أمامك من الوقائع ما يجعلك تنتبه إلى تسارع الأيام ودوران عجلتها.

بالأمس نظرت إلى بنيَّتي الصغيرة، طفلة تلعب بين يديَّ، تملأ الدنيا حيوية وضجيجًا وصخبًا؛ واليوم إذ بها فتاة على وشك أنْ تنهي دراستها الثانوية لتبدأ مرحلةً جديدة في حياتها ومحورًا آخر.

لمّا نظرت إليها نظرة المتأمل، وأمعنت النظر، أيقنت بتقدم العمر، وإنما الفرق بين الناس يتمثل بمقدار ما جنوه من النتائج بعد رحيل أيامهم؛ حتى يحمد الرابح مسعاه، ويندم المفرِّط على ما فرط فيه في سالف أيامه.

بالأمس حضر عندي في قاعة المحاضرات طالبٌ يدرس في سنته الجامعية الأولى، ولما قرأت اسمه فإذا هو ابنٌ لصاحب لي قد شهدْتُ زواجَه حين دخل على والدة هذا التلميذ، فازددت يقينًا بمضيِّ العمر، وكأنَّ صارخًا يصرخ في أذني ويقول: لِمَ لا تريد أنْ تصدِّق

أنك بدأت تتخطى مراحـل الحياة، وتقطع الطريق تلو الطريق حتى تصل إلى نهاية المطاف.

كـم ينسـى المرء أنـه قد مضـت أيامه، ومـضى عمـره، ولا يكاد يصـدّق ذلـك حتى يمرَّ أمامه شـخص من أقرانه وأترابـه، فإذا دقَّق النظـر في وجهـه، ورأى مـا حـلَّ به مـن التغـيُّر، تخيَّل أنـه انعكاسٌ لصورته، وشهادةٌ بتغيُّر حاله.

لا أدري مـا سرُّ هذا الهـروب من هذه الحقيقـة القادمة لا محالة، هل هو هروب من الشـيخوخة، أم حبًّا في الحيـاة، أم كراهية لتوديع أيام الشباب، لعلمنا أنها أنفس أيام العمر.

مـن طريف مـا يذكر أنَّ أول علامات تقدم السـنِّ بالنسـبة للمرأة؛ كراهيتها النظر في المرآة، والتي كانت تقضي أمامها السـاعات الطويلة، ولا تملُّ النظر إليها داخلة وخارجة، وما هذا إلا لكراهيتها أنْ تأخذ صكًّا يفيـد تقدمها بالعمر، وهذا يعني أفول الشـباب والقـرب من الكهولة، وكأنها بذلك تمارس رفضها الإذعانَ لهذه الحقيقة بطريقة عملية.

غريبٌ حال البشر!!

الطفل يتمنى أنْ لو كان كبيرًا؛ حتى يستمتع بما يستمتع به الكبار مـن أنواع الرفاهية، فإذا صار فتى؛ ودَّ أنْ لو كان كهلًا؛ حتى يمارس

ما يمارسه الكبار من السفر والرِّحَلات؛ وغير ذلك، فإذا صار شيخًا كبيرًا تمنى أنْ لو رجع شابًّا؛ لعلمه بما في تلك المرحلة من أسرار، كما قيل:

عَرِيتُ من الشباب وكنت غضًّا كما يَعرَى من الورقِ القضيبُ
ونُحْتُ على الشباب بدمعِ عيني فما أغنى البكاءُ ولا النحيبُ
فيا ليت الشبابَ يعود يومًا فأخبره بما فعل المشيبُ

ولربّما تمرُّ به أوقات كثيرة يتمنى أنْ لو رجع طفلًا بريئًا، بعد أن امتلأ قلبه بالهموم، وضاق صدرُه بالأحزان، وثقل كاهله بأعباء الحياة.

وعلى الرغم من كل هذه الأمنيات، سيقف المرءُ مُقِرًّا بالحقيقة التي مارس الهرب منها بأساليبَ شتى، وهي أنه سيتجاوز محطات العمر محطةً محطةً؛ حتى يبلغ إلى حيث تنتهي به المرحلة ويتوقف به المسير.

يحب الفتى طولَ البقاءِ وإنه على ثقةٍ أنَّ البقاءَ فناءُ
زيادته في الجسم نقصُ حياتِه وليس على نقص الحياةِ نماءُ
إذا ما طوى يومًا طوى اليوم بعده ويطويه إنْ جنَّ المساءُ مساءُ

لا تُغلِـق الباب

في علاقاتنـا الاجتماعية هذه الأزمان، يجب التيقن أن العقول قد تغـيَّرت، والعمقَ الفكري عند كثـيرٍ من الناس بدأ يتحول إلى تفكير سطحي، وهذا الواقع مما يجب أن يدفع الناس إلى الحذر الشديد حين التعامل مع من يرتبطون به في علاقة اجتماعية أيًّا كان نوعها.

وليـس المقصـودُ بالحذر التعاملَ بالرسـمية والثقـل حتى يؤدي ذلك إلى إضفاء صبغة الملل التي ينتج عنها بعد ذلك قطع العلاقات، لكـن المقصـود أنه إذا فُتِـح بينك وبين من ترتبط به بـابٌ من الإخاء والمؤانسـة، فلا تغلق الباب جراء ما ينتج عنك من تصرفاتٍ تجاهه، ولا تدفعـه بالمقابـل أن يغلـق الباب دونـك فتخسر صاحبًـا ربما لن يُعوَّض.

نفـوس النـاس لم تعـد كما هـي في عهدها السـابق، فقـد عادت ضيقة بسـبب المدنيَّة التي يعيشـونها، والتي نتج عنها الأنانية وتفشّي «الأنـا»، وحتى من لم يكن من أهل هذه الصفة تأثر في طريقة تعامل الأنانيين، فلم يقلدهم ابتداء ولكنه تعامل معهم بنفس المنظور ومن

ذات المنطلـق، حتى يضمن احترام ذاتـه لذاته، فعادت دائرة توصل إلى نقطة البداية بلا فرق.

ومن أعظم الناس خسارة مَن فُتح له بابٌ يستطيع من خلاله أن يلج إلى قلوب الناس، ومع ذلك سـارع بإغلاق ذلك الباب بسـبب سلوكٍ صدر منه لم يكن يتصور أنه سيبلغ به ما بلغ.

تعاملُنـا مـع الآخريـن بعباراتنـا المؤدبـة الرقيقـة التـي لا تخلـو مـن عاطفة ظاهـرة تفتح أبـواب القلـوب، وإذا علمنا أنَّ اسـتعمال العبـارات الجارحة يغلق تلـك الأبواب كان لزامًـا علينا أن نجتنب هذه العبارات.

خـلال مراحل هذه الحياة قـد يحدث أننا نسـتعمل مع الآخرين بعض العبارات القاسـية، فيحتملها الآخرون منّا، ويفسرون موقفنا بأننـا أردنـا لهم النصـح، وأن مـا نطقنا به كان سـببه حرصنـا الزائد عليهـم، فيتجـاوزون الوقـوف عـلى اللفـظ إلى استشـفاف القلب، لكـن حينـما تكون العبـارات جارحة فـإن ذلك يحتاج إلى قـوة قلبية حتى يتجاوزوا تلك المحطة، ويسـتأنفوا الحياة، ولكنهم بالتالي حتمًا سيغلقون دوننا الباب.

احتقـار المقابل بالألفاظ، بالتعبير، بالانتقاص، عبارات يصعب تجاوزها، وهي مؤلمة له كما هي مؤلمة للمتكلم لو قيلت في حقه، فإذا وضع المرء نفسـه مكان الآخرين، لم يسـتعمل هذا الأسـلوب الخالي من الرحمة.

قـد تختلـف النـاس في طباعها بـين السـهل والشـديد، والحازم واللَّـيِّن، ولكنهم يتفقون على أن أنفسـهم ليسـت رخيصـةً عندهم، ولا هينـة عليهم، ولذلك يمكن أن يخسر الإنسـان أقرب الناس إليه مقابل أن تبقى نفسه محترمة.

و أقسـى ما يمر على الإنسـان، ويعرف أثره مع الأيام، إذا أغلق بابًا يكون عنوانًا لوفائه فيضحي به، وذلك مثل أن يكشـف في لحظة غضـب سرَّ مـن اسـتودعه إياه، ورآه أهـلًا لذلك، فما أعمـقَ الجرحَ وأشدَّ النكاية!!

فإنـه بالرغم من شـدة الألم الواقع على صاحـب السر، إلا أنه في الحقيقة إشـارة إلى تزعزع شـخصية المتكلم وعـدم اتزانه؛ لأنَّ هناك أمـورًا لا ينبغي أن يخـوض فيها المرءُ مهما بلغت حدةُ الجفوة، وعمقُ الفجوة؛ لأنَّ صاحب السِّر سـيغلق الباب، لكن من الذي سـيداوي جـرح الذي أفشـاه وقد جرح نفسـه جرحًـا لا يُـرَم، وكسرها كسرًا

لا يجبر، يزداد عَطَبًا كلما تذكر ذلك الموقف الذي شهد فيه على نفسه أنه خائنٌ لما استؤمن عليه.

إن من سعادة المرء إذا فُتِح له بابٌ إلى قلوب الناس أن لا يرى لنفسه فضلًا عليهم بما يقدمه لهم من أسباب الهناء؛ لأن ما يستفيده هو أضعاف ما يقدمه لهم، ويكفي من ذلك استشعاره أنه امرؤٌ ناضج مميز، فتُسَرُّ نفسه، ويَسْعَد قلبه.

ولذلك من الضروري أن يحافظ المرء على هذه النعمة التي لا يدركها الكثيرون، و أن يبتعد عمّا يكدِّر علاقته مع الآخرين، فيغلقوا دونه الأبواب التي يجتني من خلالها طيِّب الثمرِ ونفيسَ الجوهر.

لا تنسَ نفسك

جميل أن يبذل المرء للآخرين بسخاء، وأن يستصغر ما يعطيه مهما كان كبيرًا، ولكن بين هاتين المنزلتين ينبغي أن يلتفت لنفسه، فيكرمها بالراحة التي يستطيع على إثرها متابعة السير وبلوغ الهدف.

الناس الذين يعيشون حولك إما قريبٌ ملاصق ستبذل له قُصارى جهدِك، وزهرةَ شبابك، وبريقَ قوّتِك، وفي آخر المطاف سيعيش حياته الخاصة، فإن وُفّق للإحسان أشبعك عاطفيًّا في وقت حاجتك لذلك.

وقد يكون هذا الذي يعيش حولك من بقية الناس الذين تلتقي بهم في مراحل حياتك، فيلجأون إليك في حال حاجتهم إلى ذلك، ثم بعد ذلك يواصلون حياتهم التي لا تمثل أنت جزءًا منها، ليس لأنهم ليسوا بأوفياء أو أنهم ناكرو جميل، لكن لأنه لم يكن ثمة علاقة تربطهم بك أو تربطك بهم، ولذلك لو لم يحصل اللقاء معهم مرةً أخرى، لن تجد في نفسك عليهم شيئًا، فهذا واقع الحياة الذي تعارف عليه الناس.

ومـن أجـل ذلك تكـون المحاسـبةُ مـع القريـب الملاصـق أكثر والمطالبةُ في الحقوق أكبر، فإذا رأيت منه تقصيرًا، أو شحًّا في العطاء، وجـدتَ لهـذا أثرًا في نفسـك، على أن هـذا لا ينبغي أن يكـون، فإنَّ الكريم يعطي بسـخاء دون النظر فيما يعود عليـه، وكلما زادته الأيام حرقًا، فاح عبيره، وانتشر طيبه.

ولذلـك وأنت في خِضمِّ الأحداث، وكثرةِ البذل الذي لا ينبغي أن تمنـع نفسـك منـه لأنـه سـيعود إلى خير، ينبغـي لك أنْ لا تنسـى نفسـك التـي بين جنبيك، فابـذل لها مثل ما تبـذل للآخرين دون أن تكون أنانيًّا، وأسعدها بقدر ما تستطيع وبكل سبيل، ما لم يكن ذلك السـبيل إثمًا، ولا تكن كالشمعة التي تحرق نفسها لتُضيءَ للآخرين، ثمَّ تقف في آخر سعيك قائلًا: «لقد نسيت نفسي».

وكن على أقل أحوالك ممثلًا نفسـك برجـل أطال الركض حتى انقطـع نَفَسُـه، فاحتـاج إلى وقـت يـردُّ فيـه نَفَسَـه ويريـح قلبه حتى لا يحمِّله فوق ما يتحمل.

سـتمضي بك الأيـام سريعًا، وترى النـاس الذين بذلت لهم وقد عاشـوا حياتهـم، فمنهم القليل الشـاكر، والكثير الناكـر التي يبخل عليـك حتى بكلمة تحيي شـعور العاطفة في قلبـك، وهناك يزداد ألم

الباذل ويرى أنه قد أضاع وقتًا كبيرًا من حياته بلا جدوى، ولا ينجو من هذا الشعور إلا رجلان: رجلٌ كان كلُّ سعيِه لله، فيطمع بالجزاء مـن الله تعالى وحده، لا يبحث عن كلمةِ ثناء ممن بذلَ له، ولا جزاءً، ولا شكورًا، والثاني: رجلٌ بالرغم من سعيه وبذله للآخرين لم ينسَ نفسه، فعاملها كما ينبغي، ولم يترك لها حجة عليه.

ما أجمل أن تكون وفيًّا، كثيرَ العطاء، لكن إياك أن تنسى نفسك، فإذا تقدم بك السـن قلت: «ليتني أرجع إلى سـالف أيامي فأصحح خطئي مع نفسي».

فـإذا كنت وفيًّا مع الآخرين، فنفسـك بذلك أولى، فلا تقصرْ في حقها فتندم.

لا يلتقيـــان

من الأمور المسـلمة في هذه الحياة، والتي لا تحتاج إلى كثير بحث واستنتاج، أن المرء ما دام يعيش في هذه الدنيا فهو يتقلب بين الواقع والأمنيـات، وأخطـر الأمـاني مـا يعـرف المرء مـن بداية السـير في طريقها، ووضعِه لقدمه في أول مدرجتِها، أنها بعيدةُ المنال ومستحيلة الوصـول، ولذلك فـإن العاقل حينما تخطر في قلبـه الخطرات، يقف وقفـة المتأمل الـذي يعرف إن كان الأمر سـيؤول إلى حقيقـة، أم أنه مجرد أماني لا يحصل من خلالها على شيء، بل سـيجني من خلالها ألم الحسرة ومرارة الفقد.

ليس بالشيءِ السـهل ولا العمل الهيِّن الذي يقوم به المرء ليقطع حبل الأمنيات المستحيلة، ولكنه عمل لابد أن يقوم به قبل أن تتعلق نفسه به فيموت في اليوم عشرات المرات، ويدهمه التفكير حتى تخور قواه ويضعف عقله، فينقطع عن مصالحه التي فيها اسـتقامة حياته، وطمأنينة نفسه.

ينبغـي للمـرء إذا فُتـح لـه بـاب الأمنيـات، ورأى أنهـا أكبر من الواقع، أن يحدث نفسـه قائـلًا: «لا تحلم بما هو أكبر منك»؛ فإن مَثَل

الـذي يحلم بما هو أكبر من واقعه كمَثَل مـن يحمل أثقالًا فوق طاقته فهـل تظن أنه سـيحملها إلى مكان آخر؟ أم أنه لا يـزال واقفًا أمامها يحدث نفسـه أنه سيفعل المستحيل، ولا يجني من وراء ذلك إلا مجرد التفكير الذي ينخر قوَّته دون نتيجة؛ لأنه مجرد حلم.

كـم رأيتم في واقع الحيـاة ورأينا من الصور التي تجعلك تتعجب أشـدَّ العجب أن أصحابها وقفوا هـذا الموقف، وطمعوا غاية الطمع أن يتغير الواقع لهم، وتعلم أنت بذلك لأنك خارج أسـوار الواقعة، فتقف مسـتغربًا أشد الاستغراب، ومع ذلك لم تنكشف لهم الصورة كـما اتضحت لـك؛ لأنهم في ذلـك الوقت كانوا يخوضـون في بحور الأماني، وفي كل لحظة كان يأخذهم الأمل نحو المستحيل.

نحـن لا نبالـغ ونقول إن التخلص من هذا الشـعور أمر سـهل، ولكن نقول إن دفعه في بدايته أهون من محاولة رفعه بعد أن يقع.

كم حطمت الأماني من القلوب، وجمعت بين الواقع والمستحيل، وهما لا يلتقيان، وفي ذلك أعظم العبر واليقين الذي يكشف للإنسان حقيقة نفسـه بأنه مخلوق ضعيف لا يملك لنفسـه ضرًّا ولا نفعًا، كما أن في ذلـك معرفـة الحكمـة، ففي الوقـت الذي يدفـع الأمل بعض الناس نحو الوصـول إلى الهدف الذي فيه صلاح حياتهم، إذ ببعض

الأماني تُحطِّم مركب أصحابها على صخور شطئانها القاسية، قبل خوضهم في بحورها المجهولةِ العاقبة، ولعل الفرق بينهما أن أحدهما بنى أملًا على أمرٍ فيه مجال أن يتحول إلى واقع رغم ما يعانيه من المشقات الملتصقة به، والثاني أطلق عنان خياله لأمرٍ لن يكون واقعًا، بل هو معانقة للمستحيل.

لتعذره.. ضع نفسك مكانه

كثيرٌ منا يحرص على استيفاء حقه من الآخرين، وإذا رأى منهم نوعَ تقصير بدأ بالتذمر والعتب، وكأنه الشخص الذي لم يقصِّر في حقّ أحد، ولم يجعل لشخصٍ عليه سبيلًا.

وهذا الفعل إنما يتصف به مَن لم تصقله التجارب ولم تزعزعه المواقف، فتراه يتعامل مع الآخرين بدقة، لا يتغافل عن خطأ ولا يعذر في زلة أو هفوة.

ولكي تعذر شخصًا ما، في موقف ما، ضع نفسك مكانه، حتى لو لم تعرف حقيقة حاله فعليك أن تتوقع أن يكون قد حدث له ما جعله في حالٍ غير ما كان معهودًا منه.

كنت في السابق حينما يتقدمني سائقُ سيارةٍ جديدٌ على البلد، يجهلُ طباع أهله، ويستنكر طرقاته، فأراه يسير ببطء شديد، ويعطّل السير، كنت أضيق به ذرعًا، وربما أحكم عليه بقلة المعرفة، وربما بشدة الغباء، فلما اضطررت إلى أن أستقدم سائقًا، ليعينني على أعباء المنزل، فإذا بي أجدني حينما يركب أطفالي الصغار معه ليوصلهم إلى

مدارسهم، أرى وكأنه أخذ قلبي معه، فأجدني أوصيه بالقياده ببطءٍ، وأنْ لا يهتم بأصوات أبواق السيارات حينما يضيقون به ذرعًا، المهم أن يكون أطفالي آمنين.

هذا مثال ربما يوضِّح شيئًا من الحقيقة التي تخفى عنّا حتى نكون عنصرًا منها، وعليه فقس باقي أحداث الحياة، فإنك ستكون بعد ذلك شخصًا خفيف الأعباء، سهل الفهم يأنس به من خالطه.

لقد رأيت بعض الأشخاص وقد استثقلهم الناس بسبب دقتهم غير المعقولة، بل قل: غير المتعقِّلة، فتجدهم يعاتبون على كل شيء، وربما يكررون عتاب شخص كلما رأوه على موقف معين، فتجد ذلك الشخص إما أن ينفجر في وجوههم مبديًا استياءه من تكرار العتاب، أو أنه ينسحب من حياتهم، ويجعلهم في ركام الماضي الذي لا يُفرح به.

لم يتصور بعض الناس حينما يعاتب أن كثرة العتب تورث الملل، وأن الناس عندهم ما يشغلهم، وكلما عمّر الإنسان كثرت أعماله وعلاقاته وانشغاله الذهني وكثرة الهموم حتى يصاب بالجفاف، فيحتاج إلى من يخاطبه بلطف، ويحاوره بحنان، ويغذيه بالعاطفة، لأن قلبه لم يعد يتحمل.

قد تستغرب حينما ترى فلانًا المشهور بالحلم وطول البال، وقد انفجر لموقف تراه لا يستحق ردة الفعل القوية التي حدثت، لكن لو أنك سبرت مجريات حياته وكثرة ما يحيط به، ربما عذرته فيما رأيت منه.

لذلك إذا أردت أن تبقى علاقتك بشخص ما قائمة إلى الأبد ولا تريد أن تخسره، فلا تدقق في كل حدث أو ردة فعل تكون منه، واعذره كما تريده أن يعذرك، وعامله كما تريد أن يعاملك، فلا تستقصِ في حقك دائمًا، ولا تجعل لقاءك به مجلسًا لطلب الحقوق والعتاب على التقصير، فإنه ربما يتقبل حديثك في وقت ما حتى لو كان قاسيًا وتخطيت به حدود المعقول، وفي حال آخر لا يتقبل منك ولو كلمة واحدة، فالنفوس لا تستقر على حال، ألا ترى أن شخصًا ما قد يمازحك بكلمة فتراك وقد ضحكت، ثم في يوم آخر يمازحك بمثل حديثه الأول فإذا بك وقد استثقلت مزحه؟ لم؟

فالشخص ذات الشخص، وقد كنت تراه خفيف الظل، والموضوع ذات الموضوع، والأسلوب هو الأسلوب نفسه، لكن الذي اختلف أنَّ حالك التي كانت في الموقف الأول ليست هي التي تعامَلَت مع الموقف الثاني.

فـإذا كنا نعلم من أنفسـنا أن أحوالنا لا تسـتقر على هيئة، فليكن معيارنـا في معاملـة الآخريـن هـو نفـس المعيـار الـذي نريـد منهـم أن يعاملونـا بـه، حتـى تبقـى علاقتنا قائمـة، ومعاملاتنـا منضبطة، وأحاسيسـنا ومشـاعرنا مأمونة مما يكدرها، وإن انحرَفْنا عن سلوك هذا المعيار إلى حيث التدقيق على أقل الأشـياء وأكبرها، فلن يسـتقر لنـا قرار إلا أن يعيش الإنسـان في معزل عن النـاس، وهذا هو الداءُ الفتاك الذي لا دواء له، والكدرُ من العيش الذي ليس بعده صفو.

لن يمسحوا دموعَك

إذا كان المـرء يريد أن يعيش هادئًا هانئًا، فليقدم الخير للآخرين، ويجتهـد أن يكون سـعيه بـلا مقابل، فلا يطمع فيـما في أيدي الناس، ولا ينتظـر منهم جـزاء؛ لأن ذلك ربما يكون أو لا يكون، ومن وطّن نفسه على طلب الثمن -ولو كان مدحًا- زاد تعبه وكثر عتبه.

وطّن نفسـك أن تبذل بوفاءٍ وليـس من باب ردّ الجميل، فتعطي الآخريـن لأن طبعـك الوفـاء والبـذل، وتطمـع أن تدخـل السرور عليهم، وتنال الأجر.

وربـما في زحمـة هـذه الأحـداث تحتـاج إلى من يخفـف عنك ولو بكلمة ثناء، أو عبارات شكر، فلا تجد، فكيف تطمع بما هو أكثر؟!

لقـد طُبع الناس -إلا ما ندر- عـلى حبِّ التقصي فيما يكون لهم، وعـدم المسـامحة في ذلك، فـإذا كان الأمر متعلقًـا بالآخرين وجدت شُحًّا شديدًا، وبخلًا معيبًا.

لذلك من أجل أن ترتاح، ويكلل سعيك بالنجاح، لابد أن يكون البذل لله، بغض النظر عن الشـخص الذي تعطيه وتجهد نفسـك من

أجلـه، فإذا فعلـت ذلك، فإنك حتى لو لم تجد منه ما يدل على شـكر صنيعك لم تندم؛ لأن الهدف من العطاء كان أعظم.

بل وينبغي للمرء أن يتوقع ما هو أشد، وأن يعمل على تهيئة نفسه على ما لا يكون بالحسبان، من نكران الناس لجميله، وربما ذكره بالذم والتنقيص، أو مدحه مع اتهامه بأنه فعل ذلك دون رغبة.

هكـذا هم الناس، وهكذا هو طبع البـشر، وإلا لما تميَّز الأوفياء، ولما ساد أهل المكارم.

وأنـت عش واقعك، ولا تحلـم بأكبر مما هو عـلى أرض الواقع، فإن سـلمت على نفسـك مـن الآخريـن رغم مـا تقدمـه فاحمد الله، ولا تطمع أن تنال عبارة مدحٍ أو إطراء من هؤلاء، فضلًا أن تطمع أن يمسحوا دموعك حين تحتاج إلى من يحمل همك ويداوي جرحك.

مشـكلتنا أننا خـلال تعاملنا مع مجريات الحيـاة نتعامل بما نحلم ونأمـل وليـس بما نعيشـه، عـلى أنَّ عيـش الواقع وعـدم الخوض في الأحـلام هو السـبيل إلى طمأنينـة النفـس، وإقناعها بأنـه لن يكون الحال أفضل مما هو عليه على الحقيقة.

قد لا يشـعر بمقدار الألم إلا مَن اعتـاد على كثرة البذل والعطاء، فـيراوده الحنـين أحيانًا إلى كلمات الثناء التي لا يسـتعملها إلا القليل

من الأوفياء، فلما لم يجد ذلك شعر بالمرارة لعظيم ما يبذل، مع عدم وجود من يسرُّ قلبه بكلمة شكر، لن تزيد من ثرائه، ولن تعظم من جاهه، ولكن على الأقل تشعره أن هناك من يثمّن عمله.

لا ينبغي لك أن تحلم كثيرًا، فالناس قد اعتادوا على الأخذ، ويطمعون دائمًا منك بكثرة البذل، فإذا لم يجدوا ذلك ناصبوك العداء بالأفعال، أو بجحد القلوب، ونسوا جميل ما تفعل، بل ولو أنك قصرت في موقف واحد، مع بَذْلِك العظيم في كلِّ ما سبق من الأحداث، أنكروا فضلك.

ماذا نفعل؟ نحن في زمن شحَّ فيه الأوفياء.

وبالرغم من ذلك، احذر أن تبخل في بذلك للآخرين وأنت تستطيع أن تفعل، واجعل ذلك لله، وفي المقابل كن على حذر أن تنكر فضل أحدٍ قدّم لك معروفًا يومًا من الدهر، واربأ بنفسك أن تسلك طريقًا لا يليق بمثلك؛ لأنك لم تجد جزاءً من الناس، فالكريم إنما يعمل لاسمه، وحتى يبقى رسمه، وحتى تبقى معالم الخير شاهقة، وأنوار المكارم بارقة.

ومن عظيم الوفاء أن يعظِّم المرءُ معروفَ الناس عليه، فيذكرهم بحسن الثناء، وجميل الدعاء، وكلما كان المعروف صغيرًا والمدح له

كبيرًا؛ دلّ ذلك على كريم طبع الشاكر، وحسن أخلاقه وسجاياه، فإنه لا يعرف الفضل لأهله إلا أولو الفضل، ولذلك حكم الناس على من تلقى المعروف الكبير بالجحود بأن ذلك من رذالة الأخلاق ولؤم الطباع.

ومما يعرفه أهل العقول الصحيحة أن أحوال الناس ليست دائمة السرور والهناء، فقد يكون المرء كثير البذل، ثم يُرى منه تقصيرٌ في أمرٍ سهل بالنسبة لما فعله في سابق عهده، فلا ينبغي القسوة عليه في العبارات، بل ليكن ما قدَّمَه في سالف الأيام شافعًا لما قصَّر فيه في هذا الموضع، والكريم هو الذي يلتمس لصاحبه العذر، فإنه لا يعلم حقيقة حاله إلا هو، ولربما تعرف في مستقبل الأيام عذره الذي دعاه لذلك الفعل، لكن ليكن من أعظم ما يمنعك من الخوض في صاحبك تَذكُّر جميلِه، حتى إذا أرادت كلمة السوء أن تخرج من فمك وجَدَت لها ألف مانع يزجرها، حتى تعود إلى مكانها قبل أن تنطلق.

إياك أن يدعوك ما تراه من تراجع كثير من المقصرين عن التسابق إلى الخيرات إلى أن تنحو نحوهم، وتقلّد صنيعهم، بل كن سباقًا إلى الخيرات والبذل بسخاء والتعامل بغاية الوفاء، فإذا أردت أن

تشكر صنيع نفسك بعد زمن، ولا تَرِدُ إليك خواطر الندم، فاطلب جزاءك من الله وحده، واعمل بأخلاقك أنت، لا بالنظر إلى ردود أفعال المقابل، واعلم أن المجتمع في شحٍّ كبير من الأوفياء، ومنتهى السعادة أن تكون منهم، فتظفر بالسؤدد، وتفوز بحسن الثناء، فإنما تتميَّز الأشياء إذا ندرت.

ماذا تفعل إذا احتاجوا إليك؟

مهما يكن الإنسانُ محبًّا للكلام، مكثرًا منه، ينبغي له في بعض المواقف أن يلزم الصمت، ويكثر التفكر، ويستحضر الانتباه، ويترك الشواغل التي في يده ويحسن الاستماع، لأنه ربما في بعض المواقف سيمثِّل حركةً انتقاليةً في حياة غيره، وتحوّل حياته إلى طريقٍ آخر، ولو لم يكن ذلك، فعلى الأقل حتى لا يصاب ذلك الشخص بإحباط، حيث كان يتصور أنه وجد من يفهمه ليدلي إليه بمكنون صدره، فإذ به وقد جاب كل الدنيا بفكره إلا ذلك الشخص الذي لجأ إليه.

كثيرون هم الذين يلجأون إلى غيرهم ليعرضوا عليه مشاكلهم علّهم يظفرون بحل، وأحيانًا قد يأتون إليه وهم مستيقنون أنه لا يملك لهم حلًّا، ولكن ظنوا أنهم قد وجدوا من يستطيعون عنده أن يخرجوا آهات صدورهم، وأن يطفئوا نار أكبادهم، فيفاجأوا بالواقع المرير حيث يصدمون بشخص لم يحس بهم، ولم يأذن لهم بالولوج إلى آهات قلوبهم ليخرجوها عن طريقه.

قد نمثِّل أنا وأنت مرحلةً في حياة الآخرين، فلا بد أن نعدّ ذلك فرصة لا تُعوَّض يجب أن نستثمرها.

قـد يمرّ بـك في هذه الحياة أناسٌ يحتاجـون إلى مالك، أو جاهِك لتشـفع لهم في موضوع ما، لكن هؤلاء نسـبة ضئيلة مقابل من يأتون إليك وهم محتاجون إلى كلماتك وصدق مشـاعرك، لدرجة أنك ربما بكلمـة واحـدة منك تـأسر قلوبهم، وتطبـع في أذهانهـم ذكرى لك لا تُمحَى مع مرِّ الأيام والسنين.

لذلك لا بد أن نحسن التعامل مع مثل هذه المواقف والأحداث، فقـد نكون يومًا في موقع المُلتجأ إليـه، ويحتاجه الناس، وفي مرحلة أخـرى نكـون نحن الذي نبحـث عمَّن نلجـأ إليه ليشـاركنا آهاتنا، أو يهدينا مشورته، أو يترجم ذلك إلى فعل موافق للقول.

رأيت انكسـار بعض الناس رغم قوتهـم، حيث يمرّ بهم موقف قاسٍ يجعلهم يتخبطون، رغـم رجاحة عقولهم؛ لأن البشر ضعيف، ومع ذلك يزدادون انكسارًا حينما يكشفون أسرار حياتهم، ويظهرون ضعفهم أمام شخصٍ يظنونه أهلًا -وقد كان كذلك- لكنه يتلقاهم ببرودِ مشاعر، وذهنٍ مشغول، فيزدادون حسرةً وندمًا، حينما كشفوا أوراقهـم أمامـه، وهـو يغرِّد خـارج الـسرب، وربما كلَّف نفسـه في نهايـة المطـاف أن نطق بكلمةٍ توحـي بالتفاعل، ولكـن الواقع يدعو للإحباط.

لـو فهمنـا أن بعـض الناس يصعب انكسـارُه، ويعـسر أن ينطق بـما يدور في حياته من أمورٍ خاصة، ومع ذلك يأتي إلى شـخصٍ ليبثه حزنه، ويطلعه على خلجات فكره.

ولو فهمنا هذا الأمر علمنا مقدار حاجة الناس إلينا في مثل هذه الحـال، ولذلك يجب أن نفـرغ لهم أذهاننا ونعيش معهـم بوجداننا، ونحاول أن نبدي غاية الاهتمام نحو ما يتكلمون به.

سـتحتاج يومًـا إلى من تتحدث معـه، وترى أنه قـد امتن عليك باستماعه لحديثك، رغم أنه لم يقدم لك شيئًا سوى ذلك، لكن الحال الذي كنت فيه كان يحتاج إلى من يحوطك بلطفه حتى لا تنفجر.

فـإذا كنت أنت ذلك الشـخص، وجاءك مـن يفر إليك من زحمة الحيـاة وتراكـم الهمـوم، فاحـذر أن تخذلـه، فربـما لـن يحتاجك غير هـذه المـرة، فإيـاك أن ينـصرف عنـك ولم تترك به أثـرًا يذكُـرك فيه، ويذكِّره بك.

هل نشتري الدموع لنرتاح؟

تتكالب علينا الهموم، وتحدُّ سيوفها لتقطيع قلوبنا.

فنبحـث عن أداة نواجه فيها هذا الهجـوم الشرس، أو آلة نهرب من خلالها عن هذه المواجهة، فيُخيَّل إلينا أنَّ هناك منفذًا إلى الخروج ووسـيلة إلى الراحـة، تتمثـل في دمعة حرى تبرد لوعـة الأكباد وتبل فؤاد الحزين.

نفـزع إليهـا، نركـض نحوها لنقتنصهـا، فتخوننـا حيلتنا أحوج ما نكون إليها.

تختلـف همومنـا، وتتنوع آهاتنـا، إلا أننـا نتفق على أنه لا سـبيل للراحة إلا برفع السـتر المسـدل على العيون، لنعطيهـا الفرصة حتى تنطلق.

ولكن هل نملك ذلك؟

كـم تنظر إلى أنَّ سـبيل راحتك يكون في البـكاء، ومع ذلك تجده غالي الثمن، صعب المنال، فتعود أدراجك متأوهًا، قد حملت أضعاف ما كنت تحمل من الهموم وتشعر به من الألم.

لا تعجب لو قال لك إنسان: أتمنى أن لو كانت دموعي بيدي حتى أرسلها لتعبر عمّا يسكنني من الحسرات.

فهذا حال كثير من المنكسرين الذين عصفت بهم الهموم، ويملكون فيضًا من الدموع، ولكن لا يملكون إرساله ليطفئ حرَّ الأكباد، ويشفي غليل الصدور.

فما أعظم الحسرة!

لا تظن أنَّ الهم الذي يعصف بقلب امرئٍ محتاجٍ إلى التعبير، كان بسبب همٍّ خاص أو قضيةٍ مقصورة عليه، بل ربما كان همًّا يمسُّ أمةً، لا يملك المرء أمامه حين لا يجد من يشاركه الشعور؛ إلا أن يبحث عن مؤنسٍ لا يتكلم، متمثلاً في دمعة حرَّى، فلا يجدها.

فهل يشتري الدموع ليرتاح؟ ما أصعب الاختيار.

وقت الحاجــة

مـن عـاش في هـذه الحيـاة، وطالـت أيامـه ولياليه، علـم وقت حاجتـه، والأهـم من ذلك أنه سـيوقن أنّ مـن زرع في وقت الرخاء حصد في حال الحاجة.

ليسـت الحاجة محصورةً بنوع معيَّن أو كسـب مادّي، إنما تختلف حسـب الوقائع والأشـخاص، وأكبر دليل على ذلك أنك ترى المرء فاحـش الثـراء كثير المال، ومـع ذلك فهو فقير إلى المشـاعر محتاج إلى العاطفة.

ولذلـك لابـدَّ للمرء إذا صفـا له العيـش أن ينتبه إلى مـا يحتاجه في وقـت الاضطرار والضعـف، فقد فرّط أقوام في فهـم هذه الحِقبة فندموا أشد الندم حين صحوا من غفلتهم، ولكن حين لا ينفع الندم ولا يُغيِّر الواقع.

رأيت أناسًا تعبوا على تربية أبنائهم في حال الرخاء، وربما حبسوا أنفسـهم عن بعـض ملذاتهم مـن أجـل تربيتهم، فلما كبرت سـنهم

واحتاجوا إلى معين يخفّف عنهم الحمل الثقيل، فإذا بالابن الذي أحسن تربيته، وعانى في صقل شخصيته، يقوم بهذا الدور العظيم.

فتجد الابن وقد قام بتجديد حياته، وكَثُر إنتاجه، وسعدت أيامه.

ورأيت في المقابل قومًا أغفلوا التعامل مع هذه المرحلة تجاه أبنائهم، فلما تقدمت أيامهم واحتاجوا إلى معين لم يجدوا، فعادوا إلى حمل أثقالهم من جديد، ولكن هذه المرة بجسد لا يقوى، وقلب لا يطيق الاحتمال، ومشاعر لا تتوافق مع الواقع، فإذا بالحسرة تزداد، والقلق يسيطر، والندم يستولي.

ربما نحتاج حين التعامل مع مراحل الحياة، أن نتعامل معها معاملة التاجر الذكي، الذي يجتهد في أول حياته لتأسيس ثروته، وتنويع مصادر دخله بنفسه، حتى إذا تقدم به العمر، سلم القيادة لغيره، وحصر دوره في الإشراف، فليس له من الكدِّ والتعب إلا التفكير برصيده المتنامي.

ورأيت من الناس من اجتهد في حال شبابه بالقراءة والنظر في أنواع العلوم وكد الفكر في حفظها وفهمها، حتى إذا بلغ مرحلة الحصاد فإذا به وقد جمع رصيدًا ليس بالقليل، وأصبح إنفاقه من هذا

الرصيد ليس مصدر عناء له، لأنه حفظه في صدره، وسَهُل عليه بثُّه، بل وتجد أن هذا الذي تعب فيه في شبابه صار سبب أنسه وسعادته في كبره، فحين يستوحش الناس حين قلة المسلِّي، وفقدان المؤنس، إذ بحياته وقد امتلأت بالناس، يطلبون عنده الفائدة ويلتمسون عنده الهدى.

وعاد لينظر فيرى أصحابه المفرطين حين كبروا وقد تشابهت أيامهم ولياليهم، وينتظرون وقت الرحيل أو ربما يتمنونه، وهو قد غاب عنه شبح التفكير القاتل لكثرة خلطائه الذين ملأوا حياته بتذاكر العلوم.

وترى من اجتهد في بداية حياته بتغذية مشاعر الآخرين حتى صار ذلك طبعًا له، فلما تقدم في السّن واحتاج إلى المشاعر والعاطفة، وجد الناس الذين سقاهم المشاعر يبادلونه نفس الشعور، ويردون له الجميل.

وهذا باب لابد من التنبه له حق التنبه، وهو معاملة الناس بكرم المشاعر، وأولى الناس بذلك هم الأبناء الذين سيشاركونك أيامَ حياتك ودقيقَ تفاصيلك، فزيادة على ما تعطيهم من العواطف

التي تؤدي إلى استقرار حياتهم وتميز شخصياتهم، فإن زرعك لهذه المشاعر في حال الرخاء ستحصده في حال الحاجة.

وكم هو جديرٌ بالذكر أنّ كلمة الحاجة بحد ذاتها تحتاج إلى تدبّرٍ، وتأمُّلٍ طويل، فإنّ الحاجة لا يعرفها إلا من فقد شيئًا يتمنى الوصول إليه ولم يجد إليه سبيلًا، فما تظن أنك بحاجةٍ إليه في وقت الحصاد لا تقصر في غرس بذوره في حال الرخاء.

الشـــوق

كـم هـو مؤثـرٌ حقًّا أن تشـتاق إلى شـخص ثم لا تجد سـبيلًا إلى الوصـول إليـه أو الاتصـال بـه، وكلـما صار أمـد الفـراق أبعد كان الشـوق أكبر، حتى يتحـول إلى داءٍ فتَّاكٍ وألم قاتـل، يكتم الأنفاس، ويثقل الصدور.

الخطأ عند بعض الناس في قصور عقله حيث تصور أن الشوق لا يكون إلا بين عاشـق ومعشـوق، بعدت بينهم المسافات، وحالت دونهم الحوائل.

والقضيـة أكبر من ذلك، فقـد يكون ثمة شـخص قريب إليك، لا زال عـلى قيـد الحياة، وربما تكون المسـافة بينكما قريبـة جدًّا، ومن ذلـك يكـون الاتصال معـه بمثابة الجريمـة العظيمـة، حيث يترتب عليها دمار حياته، أو ذهاب نفسه، أو زيادة القطيعة بينكما، أو نتائج أخرى لا تتكشف إلا حيث ظهورها على سطح الحياة.

يشـتكي بعض الناس أنه يموت شـوقًا لرؤية أختٍ له تعيش في كَنَف زوج، ولا يتمكن من رؤيتها لأن مرض الوسواس الذي تعاني

منه بسبب السحر جعلها تنقطع عن أقاربها، بالرغم من كون حياتها طبيعية مع الآخرين.

وتشتكي أمٌّ من فقدانها لابنتها وعدم قدرتها على التواصل معها، لأنَّ لها زوجًا قاسيًا منعها من رؤية أمها، لا لسبب ولكن لكونه شخصًا ظالمًا، أو يعاني من عقدة نفسية، فتبقى الأم تتذوق مرارة الفراق، فلا هي بالتي تستطيع الصبر عن رؤية فلذة كبدها وهي تحترق بلظى الأشواق كل يوم آلاف المرات، ولا هي بالتي تستطيع أن تتواصل مع ابنتها مخافة أن يطلقها الزوج أو أن يؤذيها بدنيًّا، فتتحطم الأسرة، فترى الأم وقد وقفت على مفرق طرق، واحتارت أيّ الأمرين تختار وأحلاهما مرٌّ.

وترى ابنًا حمله البر على حب الاتصال بأبيه الذي كوَّن أسرة جديدة، وقطع حبل المودة مع الأسرة القديمة، فيجتهد الابنُ بالتواصل معه، وإذا بالأب قد قطع حبال الوصل مع أبنائه، وإن فتحها أحيانًا سمعوا من العبارات والإهانات ما لا تتحمله الجبال الراسيات، ومع ذلك لا يزدادون إلا إصرارًا على الوصل، مع أنه وإن حصل التواصل بالأبدان، فإنَّ القلوب عن ذلك أبعد، حتى إنك لترى أبدان هؤلاء الأبناء تكبر وتنمو، وقلوبهم لا زالت فقيرة

إلى العطف والحنان الذي يجعلهم كالأطفال الذين تهيجهم الكلمة، وتحركهم العبارة.

وأقسى ما يكون عليه الحال حين يكون التواصل مقطوعًا بين البنات والأم التي يُفترض أن تكون رحيمة ببناتها، رفيقة بهن، وتعمل على احتوائهن، خصوصًا إذا عشن في بيوت أخرى، وكوّنَّ حياة جديدة، فتحتاج إحداهن إلى الهروب من الضجيج والصخب لترتاح قليلًا، فتتخيل أنها ستجد ذلك في بيت أمها، ولكن ومع الأسف لا تجد إلا عكس ذلك، فحين تقبل على هذه الأم بكل مشاعرها، تجد أُمًّا أنانية لا تحب إلا نفسها، فتقطع الصلة ببناتها لتعيش لذاتها، فتخرج وتدخل دون ارتباط بأحد، وكأن آخر العهد ببناتها حين تزوَّجْن، فكأنها ألقت حملًا ثقيلًا عن كاهلها، فلا تريد أن تتكلف صلةً مرةً أخرى.

أو أنها تفتح الأبواب لبناتها لكن مع تباعد الأرواح، فتقابلهن بنفسية مضطربة، وكلما جاءت إليها ابنتها لتسقي شيئًا من المشاعر إذ بها تقابلها مقابلة المحقق القاسي، بعبارات بذيئة أو كلمات جارحة، أو أنها تطلب منها موقفًا ليس لها القدرة على تحمله، أو تدخلها في مواضيع ليس لها شأن بها، فإذا أبت، غضبت وزجرت وسبَّت

وأهانـت، حتـى تقتـل كل معنى للفـرح في قلب ابنتهـا، التي كانت تتصور أنها ستجده عند الأم.

كم مِن البنات مَن تسـأل وتقول: إنني كلما زرت والدتي في نهاية الأسـبوع لأرتاح قليلًا من عناء المسـئولية، رجعت بهموم كالجبال، ونفسية محطمة، وشخصية مهانة مِن قِبَل أمي، بل ويكون ذلك أمام زوجـي الذي يوقرني، وأبنائي الذين أحاول أن أقومهم على الأدب، فهل يجوز لي أن أقطع هذه الزيارة؟

وبنـت تشـتكي أن زيارتها لأمها سـبَّبت لها الاكتئـاب، وبدأت تعيـش ألمًـا نفسـيًّا، فـإن لم تذهـب اتصلت بهـا الأم وأسـمعتها من العبارات ما لا تسـتطيع أن تتحمله، وإن زارتها رأت وسمعت منها مـا هو أشـد وأنكى، حتـى بدأت تضطرب نفسـيًّا، وتعيـش ارتباكًا كبيرًا إذا جاء اليوم المحدد للاجتماع والزيارة، فتسـير إليه وهي تعلم أنها سـتعود أشـد الناس حزنًـا وأكثرهـم دموعًا، فلا تفرح بمسـير ولا تظفر براحة.

وبعض البنات تعترف أن زيارتها لوالدتها الأنانية البذيئة هو من بـاب المجاملـة المجردة فقط، بـل وإنها تمر بها مـرور العَجْلى، لكونها

قد تركت أبناءها بالمنزل حتى لا يسمعوا الإهانات والكلام البذيء الموجَّه إلى والدتهم دون ذنب أو جناية.

ومـن تأمل هذه الأمثلة علم يقينًا أن الفراق القاسي المؤلم لا يلزم أن يكـون الفـراق الـذي لا لقاء بعـده في هذه الحياة، ولكـن الفراق الشـديد المؤلم هو الذي يكون بين أجسـاد تعيش على الأرض، ومع ذلـك لا سـبيل إلى اجتماعهـا، وبعضها قد يجتمع ولكـن يبقى تباعد القلوب والأرواح.

ومع ذلك فإنه يبقى أناس لم يختاروا أن يفارقوك طواعية، ولكن جاءهـم ما دفعهـم إلى ذلك رغمًا عنهم، فإن تبـين ذلك واتضح لك جليًّا، فامدد جسـور العذر، وقدِّم حسن الظن، وأمسك لسانك عن الخـوض فيما لا يليق، واذرف دموع الوفاء على شـخص لعله يكون قطعـة منـك افتقدت وصله، وها أنت تتحسـس أخبـاره، وتطمئن عليـه دون أن يعلـم بك أحد، لعلمك أنه لم يختر القطيعة ولكن أُجبر عليها.

وإذا رأيـت شـخصًا أعلـن القطيعة دونما سـبب، حتى أصابك صنيعه بالعَجَب، وتبيَّن لك أن ما دفعه لذلك غرورُه بنفسه واعتزازُه بحميَّتِـه وما حوته يداه من الأسـباب المادية، حتى نفخ به الشـيطان

فقطع حبل الوصل مع أحبائه، فانْأَ بنفسك أن تكون مثله، والزم طول الصمت، وتجنب الكلام الذي يزيد الشُّقَّة.

فحريٌّ به أن يصاب بصدمةٍ تجعله يفيق، فيحتاج إلى عظيمٍ مثلك، فإذا أردت أن تنصفه فاقبل معاذير الخلائق، فإنه تحدث منّا بعض التصرفات التي لو لم يحملها الناس على التجاوز والتماس العذر، لكنا في نظرهم خاطئين، فقطعوا وصلَنا، وأعلنوا قطيعتنا.

وعلى اختلاف الدوافع والأسباب، فإنك كلما أمعنت النظر، توصلت إلى الحقيقة التي لا تقبل الجدل، وهي أننا نحتاج إلى تواصل الأرواح، أكثر من تواصل الأبدان مع تفرق القلوب؛ لأن من عاش معك روحًا ملأك عاطفة، باستشعاره لآلامِك وفرحِه بتحقيق آمالك، وأنت كلما تقدم بك العمر أكثر احتجت إلى ذلك أكثر، واستشعرته يقينًا.

فإذا أردت من الناس أن يتواصلوا معك حال حاجتك لذلك، فكن معطاءً له حال توفره بين يديك، واقطع أسباب الجفاء، وعليك بالسماحة واللين، فإن الإنسان مهما قسا قلبه تمر به لحظات يراجع فيها نفسه، ويقلِّب أوراقه، ويعيد ترتيب سجلاته، ولعله يجدك أهلًا

لأن يضع فيك حاجته، فكن له فوق ما ظنَّ فيك من الخير، وانسَ ما تقدم من أفعاله السالفة، فإنَّ أول حبال التواصل التماسُ المعاذير.

العجائبُ لا تنقضي

عجائـب الدنيا كثيرة لا تنقضي، وعلى الرغم مما يمر أمام عينيك من العجائب والعبر، إلا أن هناك ما يستوقفك ويجعلك تقف متأملًا طويلًا.

ومما اسـتوقفني هذه الأيام قصـة عجيبة غريبة حدثت في إحدى الولايات الأمريكيـة، تدل على مدى التفكك والانهيار الذي يحاول الكثيرون من أبناءِ جلدتنا أن يستجلبوه لنا أو ينقلونا إليه.

فقد تم إنقاذ ثلاث فتيات من رحلةِ خطفٍ دامت عشر سنوات، وقد تمَّ احتجاز الشـابّات في منزلٍ خشـبيٍّ على بُعد أقلَّ من كيلو متر مـن المـكان الذي تعيش فيـه أسرة بعض المخطوفـات، وبالرغم من بشـاعةِ قضية الخطف وقسـوتها، إلا أنَّ ما أثار استغرابي حقيقةً، هو أنَّ أسرةَ إحدى الناجيات من الاختطاف لم تكلِّف نفسها حتى بتبليغ الجهات المسئولة عن اختطاف ابنتهم، وبررت الأسرة موقفها ذلك؛ أنهـم اعتقـدوا أنَّ ابنتهـم ربما غادرت المنـزل برغبتهـا، حيث كانت غاضبة آنذاك؛ لأنهم انتزعوا ابنها من حضانتها فخرجت غاضبة.

عشر سنوات والفتاة مخطوفة، ولم تكلِّف الأسرة نفسها عناء السؤال عنها!

إنَّ هذه الواقعة تعكس مدى التفكك الذي تعيشه المدنيّة الغربية التي انخدع كثير من أهل الإسلام بأضوائها الخادعة، وسرابِها المزيَّف الذي يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا.

هذا الموقف الغريب، والذي يمثِّل في مجتمعنا حالةً شاذة، بل وخارجة عن القيم والمبادئ التي اجتمع عليها الناس في جميع طبقاتهم وطرقهم واختلاف سلوكياتهم، هو حالة طبيعية في المجتمع الغربي؛ بل وإنَّ الشاذَّ عندهم ما كان بعكسها، حيث تجد أسرة تعيش مجتمعة مع بعضها، ولكن كلٌّ واحدٍ منهم يتصرف على حسب سلوكياته الخاصة.

هل تتصور أن تصل القسوة أن يتعامل أولئك مع أبنائهم وكأنهم ضيوف، ويكون هذا الشعور هو ذاته الذي يعشش في قلب الصغير، ويكبر معه كلما كبر؛ حيث ينتظر ساعة الرحيل والمفارقة.

بعكس ما ننعم به نحن أهل الإسلام، حيث يعيش الأبناء بكَنَف آبائهم، يكفلونهم صغارًا، ويرحمونهم كبارًا، ويعينونهم على تكاليف الحياة ما استطاعوا، ثـمَّ تكون لهم حياة مستقلة، ومع ذلك تبقى

العلائق الوثيقة والأواصر الشديدة؛ لأنهم قد جمعتهم رحمة الإسلام لا النظر إلى الحياة من باب المادية المجرَّدة.

وإذا تأملـت هذه الوقائع بعين العقل والإنصاف، علمت حجم الجريمـة العظيمـة التـي يريـد أذنـاب الغـرب أن يفعلوهـا في ديار الإسـلام، ليكون الشتات ظاهرة في ا لمجتمع المسلم، وقطعُ الروابط والأواصر سـمةً بارزة له، ثم يفشوا بعد ذلك الانحلال الأخلاقي، حيـث لا حسـيبَ ولا رقيب، وقد قُطِع سُـلطان الوالد على أولاده، فيكـون تعاملهم مجـرَّد لقاءات باهتـة، لا تتوقع لو للحظـةٍ أنَّ ذلك الشخص يمتُّ للآخر بأدنى صلة.

فمَـن علـم ذلك حمد الله تعالى أن اصطفاه مسـلمًا، وجنّبه سـبل أولئـك المنحرفين عن السـبيل، وشـكر نعمة الله عليه قـولًا وفعلًا، وسـأل الله بقلبٍ صـادقٍ أن يزيده بصيرةً بضـلال أولئك الضالِّين، وأن يزيده بغضًا لهم ونفورًا منهم.

ومن تمام شكر الله على نعمائه أن يتبصَّر المرءُ بحيل أذناب الغرب المنهزمـين شـخصيًّا وفكريًّـا، ويقفَ لهـم بالمرصاد؛ بتفنيد شـبههم؛ وردِّ ألاعيبهـم؛ وكشـف كذبهم المزيَّـف على الأمة بدعـوى التطور والتحرر، حتى يقودوا أهل الإسـلام إلى التجرد مما نشـأوا عليه من

الأخلاق والمبادئ، فجهاد هؤلاءِ من أعظم أنواع شكر النعم، وأقل ما يقدمه المسلم لأمته العزيزة المترابطة؛ حتى لا تنسلخ مما تتمتع به من النعيم الذي اختصها الله به، فتكون تبعًا لأفكار أهل الشك والرَّيب والانحدار.

من دروس الحيـاة

عملـت في بعـض أيام حيـاتي لفترة طويلـة في عملٍ يـدور فلكُه في محيـط القضايـا الأسريـةِ، وعايشــت كثـيرًا من القصـص التي لو عوملـت بحكمـة لما آلت نتيجتها إلى آثار سـلبية قاتلـة، وردود فعلٍ قاسـية، حيث تنازع طرفي القضية امرأةٌ مسـتبدة عنيدة، ورجل خلا من الحلم والتغافل، فحدثت القطيعة.

ولـو أن المسـألة انتهت عند هذا الحد لهان الأمـر، ولكن صار ما بعد الانفصال تصفية للحسـابات، ووسـيلة للضغط، مما جعل المرء يتصرف بلا عقل ولا رحمة.

رأيـت من النسـاء مَن إذا انفصلت عن الرجـل عمدت إلى منعه مـن رؤية أبنائه، وكأنه عدوٌّ لهم، وليتها تكتفي بذلك بل إنها لا تزال تطرق آذانهم بالقصص والأحداث التي من شأنها أن تسقط شخصية الوالـد، وتبغِّضهم فيه، حتى تملأ النفـرة قلوبهم، ولا يعود له وجود في حياتهم إلا ما يكون مسجلًا في الأوراق الرسمية.

وقد رأيت من هؤلاء الآباء من يقتله الشوقُ، ويجد ألم الفقد جراء بُعده عن أولاده، ولا يملك سبيلًا لتغيير الواقع، فيتعايش مع خلوِّ العواطف، وحسرة الفراق، دون أن يكون قد جنى جناية تؤدي إلى معاقبته بهذا العقاب القاسي.

وأشدُّ ما يكون وقعًا على قلب هذا الوالد أن يكون أبناؤه ليسوا بالصغار الغافلين، بل من الكبار العارفين، ومع ذلك لا يكون منهم موقفٌ جريءٌ للخروج من دائرة الخطأ وعمل الأصح والأصوب في عدم الانقطاع عن الوالد، فإذا رأى الوالد سلبيتهم ازداد جُرحًا، لاستشعاره أنهم كانوا وكأنهم ينتظرون حدوث هذا الشيء بفارغ الصبر حتى يقطعوا علاقتهم به، ويعيشون حياتهم الأنانية دون الالتفات لشخصٍ بذل كلَّ حياته وصحتَه من أجلهم، حتى يبذلوا له شيئًا من العاطفة، فلما كانت بين أيديهم بخلوا بها.

ولعل هذه المرأة التي قامت بهذا الفعل كانت تعاني من القهر مع هذا الزوج، لكن هذا لا يجعلها تعاقبه من خلال أولاده؛ لأنهم ليسوا بعنصر فاعل في القضية، فلماذا يعاقَبون بسبب ذنب لم يجنوه؟

وقد يكون هؤلاء الأبناء صغارًا فيحتاجون إلى عاطفة أبوية، وحنانٍ من نوع خاص لا تستطيع الأم مهما فعلت أن تقدمه لهم، فيعيشون لحظات الانكسار بين المجتمع والأقران.

لا بـد من فصل أطراف القضية، فما مـرّ على الزوجين من الواقع القاسي الذي كانوا فيه، لا يجب أن يحملهم على غير المألوف.

ويجـب على الطرف الذي يكون الأولاد بين يديه وتحت رعايته، أن يتذكر دائمًا أن ثمة طرفًا آخر يحتاج إلى أولاده، يفتقدهم، ويشتاق إليهم، فلا يكن سدًّا منيعًا دون وصوله إليهم، فهذا أمر لا ينبغي أن يُغفل عنه.

على أنني كنت دائمًا إذا جاءني مَن هذا حاله، وهذا صنيعه، كنت أنصحـه بـأن لا يجعل الأبناء وسـيلةَ ضغـط؛ لأن بعـض الناس إذا سـلك طريقًا لن يتراجـع عنه، وقد يكـون الأب في بداية الأمر كثير الشـوق، ثم يتغيَّر حاله، ويتشرب القسـوة، وربما يبـدأ حياة جديدة مـع أسرة جديدة، ولا يلتفت إلى أسرته القديمـة، فتكون تلك المرأة أعظم خسـارة، فلا هي بالتي أثمرت وسيلة الضغط التي قامت بها، ولا هو بالذي بَقِيَ على تواصل مع أبنائه ليقومهم تربويًّا، ويشـبعهم عاطفيًّا.

والأقسـى مـن ذلـك أن تـدرِّب المـرأة أبناءهـا على التجـرد من العواطـف تجاه والدهـم، ظنًّا أنهم سـينحازون إليها، فـإذا بهم وقد

تجرّدوا من العواطف كليًّا، وتشربوا القسوة، فكان أول تطبيقٍ عملي يقومون به تجاه هذه الوالدة التي نسيت أن الدنيا سلفٌ ودَين.

فسرعان ما ركضت الأيام، وإذ بالابن قد تزوج امرأة تحتويه فأفاض بعاطفته على أولاده، ودخلت البنت في حياةِ زوج تشعر أنه والدها المفقود، وإذ بالمعاملة مع تلك الأم تنقلب إلى معاملةٍ باهتة لا طعم لها، وربما قامت صارخة بين الحين والآخر: «إنني فعلت ذلك من أجلكم»، فيجيبها صوت قلوبهم: «بل من أجل نفسك».

لذلك لا بدّ من الحذر من أن ندرِّب الناس على فقدان العاطفة، ونسقيهم قسوة القلوب، فربما نصبح نحن ساحة التطبيق العملي لما تشربوه من الدرس النظري.

لا بد أن نعلم أن لكلٍّ من الأب والأم عاطفةً خاصة، لا تغني عنها عاطفة الطرف الآخر، وله عمل لا يمكن أن يقوم الطرف الآخر بمكانه، لذا كان من الواجب أن يكون الأبناء في منأى عن أي تصرف قد يعود عليهم بالنقص.

لا ندّعي أن الأمر سهل، فحظوظ النفس قد تُعمي الأعين وتطمس البصائر، ولكن لو أن المرء حين وقوع الخصام مع الطرف الآخر تعامل بالصبر والحكمة ودعاء الله بالتوفيق، ربما فتح له بابُ

خير عظيم، وتجاوز هذه المرحلة إلى مرحلةٍ يعرف معها كيف يتعامل مع الواقع الراهن.

وعلى كلّ حال، فمهما مسّ الإنسان من الضرر والسوء، حتى لو أراد أن يأخذ حقّ نفسه، فلابدَّ أن يبتعد عن معاقبة الناس في أمرٍ ليس هو موضع خصومة، لاسيما معاقبتهم في عواطفهم تجاه الآخرين، فإن ذلك من أعظم أنواع الأذى، وأوسع أبواب الشر، لأنه يؤدي إلى قسوة القلوب، وإذا قست القلوب فتحت باب الانتقام، وطمست بصيرة التمييز، وربما شرب المرء من الكأس الذي سقاه الآخرين، وقد كان في عافية.

ورحلت ســارة

لقد آن للجسد المُنهك أن يرتاح.

رحلـت «سـارة» بعد أن ظهـر فيها المرض فجـأة وصاحَبها على مدى ثلاثة أشـهر؛ فشلت معها مساعي الأطباء أن تنقذها من القدر المحتوم الذي لا مفرَّ منه.

قل للطبيب تخطَّفته يدُ الرَّدى   مَـن يـا طـبـيـبُ بـطـبِّـه أرداكـا

أسأل الله أن يسبغ عليها وابل الرحمة والغفران، وأن يجعل قبرها روضة من رياض الجنة، وأنْ يعاملها ببره ولطفه وإحسانه.

كانت قويةً رغم شدة المرض، وتلقَّت قضاء الله بالصبر والقَبول والتسـليم، فلم تضجر بسبب ما حلَّ بها من البلاء، ولم تعترض على ما قدَّره الله وقضاه.

أنفقـت جُـلَّ وقتهـا بالذكـر والتسـبيح، حريصـة عـلى صلاتها والسـؤال عن أحكام المريض، وكيفية صلاة المريض وطهارته؛ لأنها لم تعد قادرة على مغادرة سريرها الأبيض.

ورغـم الألم الشـديد الـذي كان يعتريها؛ وضيـق النَّفَس، كانت صابرة محتسبة.

لقـد كانت ابنة أخي «سـارة» حالـة مختلفة عن بنات جنسـها منذ أن كانـت صغـيرة، حملت بين جوانحهـا قلبًا أبيـضَ لا يعرف الحقد، وابتسامةً ناصعة بريئة، وتفاؤلًا رغم ما يعتري الحياة من ذبول قاتل.

وحتى وهي في شدَّة ألمها، ومع تقرير الأطباء أن حياتها لن تستمر طويلًا، وأنها في تدرُّجٍ نحو الأفول، إلا أنَّ الابتسامة لم تفارق محياها، وذلك المزاح البريء لم يزل هو طبعها، رغم الألم.

لا زلت أتذكر تلك الطفلة الصغيرة التي كنت أحملها بين ذراعيَّ بفرحـة غامرة، تضحك بين يديَّ -وقد كنت صغيرًا- فيُخيَّل إليَّ أنَّ الدنيا تبتسم بابتسامتها وتَرَددِ صدى ضحكاتها.

وكـبرت «سـارة»، ولم تزل تلـك الطفلة البريئة، تعـاني وتصبر، وتُنحَـت كالجبـل فتـزداد صلابة، وحتـى وهي تعاني من شـدة الألم كانت تُخفي ألمها حتى لا تُحزن محبيها.

ليـس غريبًـا أن يفكر المـرء في غيره حـال عافيته، ولكـن منتهى العظمة أن يتحسَّـس المـرء أحوال غيره، ويفـرح لاجتماعهم حوله، وهو في منتهى الألم، والمرض قد أنهك قُواه.

وهكذا كانت «سارة».

فعلى الرغم من شدة الألم الذي كان يمزق أشلاءها، إلا أنها كانت تُبدي سعادتها باجتماع «أعمامها وأخوالها» حولها، وكأنَّ لسان حالها يقول: لقد اشتقت لمنظر اجتماعكم حولي، والذي افتقدته بسبب تفرق البلدان ومشاغل الحياة، ولو كان الثمن مرضي.

وربما همست في أذن بعض محبيها بهذا الشعور.

كانت تسأل عن هذا، وتطْمئنُّ على ذاك، فعاشت لغيرها حتى آخر لحظة.

والحمد لله الذي جمَّلها بالصبر.

فلا أذكر أنني زرتها في المستشفى وسألتها عن حالها فاشتكت إليَّ أنَّ هذا الموضع يؤلمها، بل كان جوابها دائمًا: «الحمد لله أنا بخير».

لقد كانت «سارة» منذ صغرها فتاة صالحة -ولا أزكي على الله أحدًا-، اهتمت بلباسها الشرعي ديانة لله وإذعانًا لأحكام الشريعة.

وحرصت مذ كانت صغيرة على الصحبة الطيبة في مدرستها، فلم تكن تصاحب إلا الخيِّرات، ولطالما كانت تحدثني -وهي في المرحلة المتوسطة- عن صديقاتها الصالحات «آسيا، عذاري، و..و..»، وما يبذلنه من جهود لإقامة المحاضرات الدينية في مدرستهن.

كانت تخبرني بذلك وهي تريد أن تحفزني لألقي محاضرة في مدرستها، وقد كان ذلك، وهي من أولى المحاضرات التي ألقيتها في المدارس، فأسأل الله أن لا يضيع أجرها ومَن سعى في ذلك من أخواتها.

وكبرت «سارة»، أصبحت أُمًّا، ولم تزل بنقاء الطفولة.

وفجأة وبلا مقدِّمات، دهمها المرض وهي في ريعان شبابها، وتخلَّل أجزاء جسمها، وسارع في الانتشار في جسدها حتى بدا وكأنه يسابق اللحظات والثواني، حتى توفاها الله تعالى فجر الاثنين ٩ شعبان ١٤٣٢هـ، الموافق ١١/ ٧/ ٢٠١١م.

وكان مما هوّن المُصاب على شدته أنَّ الله تعالى لعظيم جوده وفضله ورحمته قبضها وهي مشيرة بأصبعها السبَّابة بشهادة التوحيد، فأسأل الله أن يكون لها أوفر النصيب من قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**»، وأسأل الله تعالى أن يكون ما أصابها كفارة لها، وأن يعاملها بفضله ورحمته وبما هو أهله، إنه هو أهل التقوى وأهل المغفرة.

إنَّ القلب ليحزن، وإنَّ العين لتدمع، ولا نقول إلا ما يُرضي ربَّنا، وإنا بفراقك يا «سارة» لمحزونون، وإنا لله وإنا إليه راجعون..

لقد رحلت سارة، ولم يبق إلا قصيدة حزينة، وفيضٌ من ذكريات..

أفَلَت شموس أحبتي وترحَّلوا ... واستوحشتْ دارٌ تئن ومنزلُ
كانوا هنا بين العيون ورمشِها ... حَلُّوا ومن بعد المقام تحوّلوا
هذي الحياةُ وإن تطاول عمرها ... وكذا الزمان توقُّفٌ وترجُّلُ
ودوام أحوال الزمان خديعةٌ ... والمرء يرغب في السرور ويأملُ
لكنه وهمٌ كبيرٌ ضائعٌ ... والهمُّ يفتك بالقلوب ويقتلُ
والمرءُ يطمع في الحياة لعله ... يحيى سعيدًا في الحياة ويرفُلُ
يسعى حثيثًا علَّه يجد الهنا ... وكأنه لشقائه يتعجَّلُ
عجبًا لمن رام الحياة هنيئةً ... كلَّفْت قلبك فوق ما يتحمَّلُ
لو دامت الأيامُ صفوًا لامرئٍ ... أو في السرور لما شكاها الأولُ
فالبدر ينقص إنْ رأيتَ تمامَه ... والزرع من بعد اخضرارٍ يذبُلُ
وانظر إلى من جرّب الدنيا وقد ... سئم الحياةَ فإذْ به يتململُ
فانهض وحثَّ السير في طلب العلا ... واحذر إذا جاء العذول يخذِّلُ
واعلم بأنَّ العمرَ حُلْمٌ زائرٌ ... والمرءُ يجمع في الحياة ويرحلُ
والموتُ بين الناس أعظمُ واعظٍ ... أين الذي يزنُ الأمورَ ويعقلُ
فالْحَقْ بركب الصالحين ولا تكن ... بنجاةِ نفسك قدْ تضن وتبخلُ
والعمرُ ماضٍ فاغتنم أيامَه ... واللّهُ يقضي ما يشاءُ ويفعلُ

الكتابــة

الكتابـة من أفضل مـا يتناوله المرء في حياته، لما لها من جميل الأثر العائد على صاحبها مع الأيام.

وكـما أنَّ البـكاءَ يبـلُّ فـؤاد الحزيـن؛ فـإن الكتابـة لا تقـل أهميةً ولا شـأنًا في ذلك، ولذلك نجد بعض الناس حين تضيق به السـبل، وينزعـج مـن ازدحام النـاس حوله وعلـوِّ الأصوات عنـده، وكثرة الأعـمال الموكلـة إليه حتى تجعله مضطربًا مسـتنفرًا، يجـد راحته بأن يفـر ممن حوله؛ ويجلـس خاليًا؛ قاطعًا سـبل التواصل مع الآخرين، ثـم ينفث هموم قلبه، ويخـرج زفرات صدره عـلى صفحات الورق؛ يصاحبهـا نزيف حبر القلم، ليُخرج بعـد ذلك كلماتٍ لربما لا تكون عظيمـة، بقدر ما تشـعره بالراحـة، لأنها خفَّفت ضغوطـات الحياة، وأطفأت نار الكبت.

ولـذا فإنَّ امتهان الكتابة أمرٌ أكثر من رائع، خصوصًا إذا تعلقت بالجانـب الوجـداني، ومـا ينفـع الناس في شـئون حياتهـم وتوضيح سبلهم.

فإنــه ومع الوقت، ســيكون أعظم الناس ســعادة، حــين يجد أثر هــذه المقالة أو تلك الحــروف في الناس، وحتى لو لم يجد لها أثرًا، فإنَّ شعوره بأنه ساهم بعملٍ مثمر؛ يكفي لأنْ ترتسم على محياه السعادة، لإحساســه بأنَّه بادر إلى فَهمِ ما تأخر غيرُه في معرفته، وشــقَّ الطريق إلى ما تخلف عنه الآخرون.

ويكفــي الكاتب شــعورًا بالســعادة أنه كلــما قلَّــب أوراقه، رأى سنوات عمره بين يديه، ورأى فيها نفسَه في فترة من مراحل حياته.

كــم هو جميــل أن تعطي نفســك فرصــةً لمحاولة الكتابة ورســم الكلمات.

درب نفســك على الكتابة، وشــجِّع من تحت يدك على ذلك لعله أن يكون له شأن، وإذا رأيت طفلك بدأ يكتب الكلمات المبعثرة على الأوراق، ويكثر التمزيق والعبث، فشــجعه بطريقة حســنة ملائمة، فلعله أن يكون بداية مشروع أدبيٍّ عظيم.

ومن أهم ما ينبغي أن يتعلمه ممتهن الكتابة إتقانُ طريقتها؛ لأن ما يكتبــه هو مــا يواجه به المجتمع، وأن يعلم أنَّ كتاب المرء دليلُ عقله، وكثيرًا ما يُحكم على شخصية المرء من خلال ما يكتبه، فيُعرف أسلوبه ومميزاته وانفعالاته، إلى غير ذلك، فينبغي له عند ذلك أن يكثرَ النظر

في الكتب التي ستؤثِّر في شخصه وسلوكياته، ويتزودَ بالمعلومات التي ينطلق من خلالها إلى الناس حين التعبير عن مشاعره ودون تكلف.

كما ينبغي للكاتب أن يهتم بقواعد النحو والإملاء وأن يتقن الخط العربي؛ لأنَّ إتقان اللغة أهم ركائز الانطلاق في رحلة ممتعة آثارها جميلة، وحتى لا يكون عالة على غيره، ثم يكون ذلك مانعًا له من إخراج ما يكتبه؛ وقد يكون ما خطَّه أبهى من نفيس الجوهر المستخرج من بطون المحيطات.

فإذا اجتمع للكاتب إتقان العربية؛ مع شعور وجداني صادقٍ يخرج من صميم القلب لا تقليدًا للآخرين، كان له الأثر البالغ الجميل على المدى البعيد، وهذا هو الذي ميَّز المقالات النافعة عن المقالات التي ذهبت أدراج الرياح.

وحين تبدأ قطار الكتابة، وقبل أن ينطلق، تذكر أنَّ كل ما تكتبه فإنك مؤاخذٌ به، فإياك أن تكون فتنة للمسلمين، أو أن تعمد إلى الهجوم على الشريعة ظنًّا منك أنَّ ذلك تقدم وحضارة وحرية، وانظر فيمن حولك ممن رحلوا عن الدنيا وقد خلَّفوا وراءهم كتبًا أو مقالات، فمنهم من مات ولا يزال الناس يترحمون عليه كلما

انتفعـوا بعلمه ومقالاتـه، ومنهم من مات ولم تـزل مقالاته يتوارثها أهل الباطل ويسـتدلون بها، وهي تدعو إلى الانحراف والخروج عن الفضيلة، فرحل الكاتب ولم تزل ذنوبه تتبعه، فما أعظم جرمه.

فاحرص على الخير فيما تكتب، واحتسـب الأجر فيما تنشر، وإن نـسي النـاس ما كتبتَه، فإنَّـه محفوظ عند الله -خـيرًا كان أو شرًّا- في كتاب عند ربي، لا يضل ربي ولا ينسى.

المحتويات

*** صدر للمؤلف:**

- **كلمات من واقع الحياة.**
- **ولْيسعك بيتُك** «من أجل حياة زوجية هانئة».
- **نزهةُ الخاطر** «جولةٌ في رياض الأدب».
- **ضحيةُ معاكسة.**
- **وصايا للخطيب.**
- **بقلمي.**
- **مِنبريات.**
- **بدايةُ الفقيه.**
- **السيرةُ النبويةُ .. من الولادةِ إلىٰ الوفاة.**
- **لم تكتمل.**
- **التربية العاطفية للأبناء.**
- **قصيدةُ الواعظة.**
- **شرح قصيدة الواعظة.**

*** تطلب جميع المؤلفات من: دار الخزانة**

الكويت ت: ٦٧٦٠٦٠٣٣ - ٥٥٣٨٦٠٦٢

*** عنوان المؤلف**

www.salemalajmi.com

Email:alajmi250@hotmail.com

@dr_salem_alajmi